الإنسان في القرآن الكريم

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

تقديم

الحمد لله هو الأول والآخر ، والظاهر والباطن ، وهو علىٰ كل شيء قدير . والصلاة والسلام علىٰ خاتم الأنبياء والرسل وعلىٰ آله وأتباعه البررة إلىٰ يوم الدين وبعد :

فإن الإنسان أكرم المخلوقات هو جذع الكون ، ومحل التكليف أو الأمانة الإلهية ، ومرتكز الاعتقاد السديد بالله عز وجل ، تعهده الله تعالىٰ برعايته وعنايته ، وفضله وإحسانه ، وجعله أداة تعمير الأرض واكتشاف خزائنها .

ولا نجد مثل القرآن الكريم مكرّماً دائماً للإنسان ، فكان جديراً بالبحث فيه ، وأن يبادر هذا الإنسان لمعرفة خالقه والمنعم عليه ، وأن يظل عابداً لله محسناً غير مسيء . فإن أحسن فهو الواجب عليه ، وإن أساء فإساءته علىٰ نفسه .

والإنسان أيضاً جذع شجرة وارفة الأغصان ، زاهية الألوان ، طيبة الثمار ، وشعاب البحث فيه ثلاث :

- الإنسان في القرآن الكريم بصفة عامة .

- الإنسان في القرآن الكريم بمنظور رسائل النور للداعية سعيد النورسي .

ـ حقوق الإنسان بين العالمية والخصوصيات الثقافية (التصور الإسلامي) .

تتناول هذه الشعاب مسحاً شاملاً لخلق الإنسان واستخلافه وخصائصه ، وهذه هي الشعبة الأولىٰ ، كما تتناول تكوينه الاعتقادي وتحليل مرتكزات العقيدة الحقة في شغاف قلبه ، وأدق خلجات مشاعره ، وملء حواسه وأعضائه ، وهذه هي الشعبة الثانية ، ثم تأتي الشعبة الثالثة لمعرفة حقوق الإنسان من الناحية الدولية أو العالمية ، فكان البحث مفيداً جداً ، وكل من هذه الشعاب قدِّم لمؤتمرات ثلاثة : أولها لمؤتمر الأطباء في دمشق ١٩٨٩ ، والثانية لمؤتمر دولي في إستانبول عام ٢٠٠٠ م ، والثالثة لندوة في باريس أواخر عام ١٩٩٩ م .

* * *

الإنسان في القرآن الكريم بصفة عامة

القسم الأول ـ مكانة الإنسان :

احتلت مكانة الإنسان في القرآن المجيد المنزلة الأولىٰ من بين سائر مخلوقات الله في كونه ، فهو مستودع الأسرار الإلهية ، وموضع الأمانة والتكليف الرباني الدال علىٰ العناية والتكريم ، ومهبط الوحي الإلهي الذي يضع نظام البشرية الأصلح ومنهاجها الأسلم ، وهو الذي ارتضاه خالقه لأن يكون أميناً مسؤولاً عن إعمار الكون وتقدم الحياة الأرضية الدنيوية ، وهو بالتالي وارث الجنان وأرض الله الطيبة المباركة الخالدة إذا استقام علىٰ أوامر الله تعالىٰ ، والتزم طاعة الله عز وجل ، وحقق الهدف المنشود من وجوده ، وأدىٰ الرسالة المنوطة بعنقه .

لهذا فلا غرابة أن نجد الإنسان هو المبدأ والمنتهىٰ في الحياة الدنيا الهادئة حيناً ، والصاخبة المضطربة حيناً آخر ، وأن يكون هو مدار التشريع الإلهي والتنزيل القرآني ، ومحور العناية الربانية لإيجاد الإنسان المثالي وتكوين المجتمع الفاضل .

ومن أجل الوصول بالإنسان إلىٰ شاطىء الأمن والسلام ، وتحقيق الغايات والأهداف الكبرىٰ ، والمقاصد التشريعية ، تولىٰ القرآن الكريم تربيته ، مرة باللين والحكمة والموعظة الحسنة ، وتنبيه العقل البشري ، وإيقاظ النفس والضمير ، وإطلاق حرية الإنسان ، وتخليص

أسره من ربقة التقليد الأعمىٰ ، وإعمال فكره في ذخائر الكون ، للإفادة والاستفادة ، وتحقيق معالم التقدم والرخاء والرفاه ، مرة بالمعالجة والمجاهدة للأهواء والشهوات ، وتارة باللوم والتعنيف والزجر والتوبيخ ، وأحياناً أخرىٰ بالتهديد والوعيد والترهيب والإنذار والتحذير من العقوبة الرادعة الزاجرة له إما في الدنيا ، وإما في مصيره الحتمي في الآخرة .

وأريد من بحثي هذا أن أضع التصور الإجمالي لحقيقة الإنسان ، وأوضح معالم طريقه ، وأحلل نفسيته العظيمة الخطيرة التي انطوىٰ فيها العالم الأكبر ، كما قال ابن عربي :

أتـزعـم أنـك جِـرْم صغيـر وفيـك انطـوىٰ العـالـم الأكبـر

الله والكون والإنسان :

لم يرسل الله تعالىٰ الرسل والأنبياء ، ولم يهيئ في كل زمان القادة المصلحين ، ولم ينزل الكتب السماوية المشتملة علىٰ صحيفة الكون ، ولم يخلق الله هذا الكون العظيم الشاسع ، بما فيه من خيرات وكنوز ومنافع ، إلا من أجل الإنسان ، وبغية إصلاحه ، وتمكينه من أداء مهامه ورسالته في الحياة .

ولقد صرح القرآن الكريم بأن جميع ما في الكون خلق للإنسان ليستفيد منه ، وليكون وسيلة لعيشه الهانئ ، وأداة لتقدم الحياة البشرية ، فقال الله تعالىٰ : ﴿ هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ﴾ [البقرة : ٢٩] أي خصص جميع ما في الأرض من منافع للإنسان ، وفصَّل هذا التخصيص وأوضحه في آيات أخرىٰ ، منها قوله سبحانه : ﴿ وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنۢ بُيُوتِكُمْ سَكَنًا وَجَعَلَ لَكُم مِّن جُلُودِ ٱلْأَنْعَٰمِ بُيُوتًا تَسْتَخِفُّونَهَا يَوْمَ ظَعْنِكُمْ وَيَوْمَ إِقَامَتِكُمْ ۙ وَمِنْ أَصْوَافِهَا وَأَوْبَارِهَا وَأَشْعَارِهَآ أَثَٰثًا وَمَتَٰعًا إِلَىٰ

حِينَ ﴿٨٠﴾ وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّمَّا خَلَقَ ظِلَالًا وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ الْجِبَالِ أَكْنَانًا وَجَعَلَ لَكُمْ سَرَابِيلَ تَقِيكُمُ الْحَرَّ وَسَرَابِيلَ تَقِيكُم بَأْسَكُمْ كَذَٰلِكَ يُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْلِمُونَ﴾ [النحل : ٨٠-٨١] . ومنها في بيان نعمة وجود الجنسين والتزاوج : ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِّتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الروم : ٢١] .

ومنها في إيجاد السموات والأرض : ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ ﴿١﴾ هُوَ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن طِينٍ ثُمَّ قَضَىٰ أَجَلًا وَأَجَلٌ مُّسَمًّى عِندَهُ ثُمَّ أَنتُمْ تَمْتَرُونَ﴾ [الأنعام : ١-٢] .

ومنها ما بينه سبحانه وتعالىٰ من خيرات السماء وبركات الأرض وتكوين الجبال ، وإيناس الإنسان بمخلوقات الله المختلفة ، فقال سبحانه موجِّهاً إلىٰ مختلف العلوم الطبيعية وعلم طبقات الأرض ، ومركزاً علىٰ ضرورة استفادة العلماء من تلك الكنوز الأرضية : ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ ثَمَرَاتٍ مُّخْتَلِفًا أَلْوَانُهَا وَمِنَ الْجِبَالِ جُدَدٌ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَانُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ ﴿٢٧﴾ وَمِنَ النَّاسِ وَالدَّوَابِّ وَالْأَنْعَامِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ كَذَٰلِكَ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ﴾ [فاطر : ٢٧-٢٨] .

هذا التقابل في الخطاب المباشر بين الخالق والمخلوق ، بين الله والإنسان دليل قاطع علىٰ أن للإنسان رباً واحداً وإلهاً واحداً ، خلقه وسوَّاه وأحسن خلقه ، فتبارك الله أحسن الخالقين . ودليل علىٰ أن الإنسان المخلوق بوساطة القدرة الإلهية هو أكمل خلق الله ، وأبدع ما في الكون ، وأجدر شيء بتنفيذ مراد الله في أرضه ، كما وصف الله تعالىٰ بقوله : ﴿صِبْغَةَ اللَّهِ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ صِبْغَةً وَنَحْنُ لَهُ عَابِدُونَ﴾ [البقرة : ١٣٨] .

استخلاف الإنسان في الأرض :

اصطفىٰ الحق سبحانه وتعالىٰ الإنسان من بين سائر مخلوقاته ، ليكون خليفة بشرية في الأرض لعمارتها واستغلال مواردها ، واستخراج خيراتها وكنوزها ، وليكون آية عجيبة خارقة علىٰ عظمة الخالق المبدع ، وليصبح هو السيد الآمر الناهي المدبر والمخطط في عالم الأرض بإلهام الله وتوفيقه وتمكينه من القيام بالمهام المختلفة بما زوده من طاقات فكرية وإرادية وجسدية ، وسخَّر له كثيراً من الكائنات في البر والبحر والسماء ، ومنحه مفاتيح المعرفة لخيره ونفعه ومصلحته . وهذا واضح في قوله تعالىٰ : ﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوٓاْ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّيٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ [البقرة : ٣٠] أي إني جاعل في الأرض خليفة في تنفيذ أحكامي فيها وهو آدم وذريته ، أو جاعل قوماً يخلف بعضهم بعضاً قرناً بعد قرن وجيلاً بعد جيل .

ومن أجل تمكين هذا الخليفة من التجمع المدني والارتباط الاجتماعي والتعاون الشامل ، علَّمه الله اللغات وأسماء المسميات ، ليسهل عليه وعلىٰ ذريته التخاطب والتفاهم والكلام ، فقال الله تعالىٰ مباشرة بعد قرار الخَلْق وجعل آدم في الأرض : ﴿ وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ فَقَالَ أَنۢبِـُٔونِي بِأَسْمَآءِ هَٰٓؤُلَآءِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٣١﴾ قَالُواْ سُبْحَٰنَكَ لَا عِلْمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ﴾ [البقرة : ٣١ـ٣٢] .

والخلافة موروثة بين بني البشر ، توارثها أبناء آدم وذريته عنه ، ومنهم من حكىٰ الله تعالىٰ تسليمه هذه الخلافة في أقوىٰ مظاهرها ، وهو الحكم والسلطة والنفوذ ، كما حصل لداود عليه السلام : ﴿ يَٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلْنَٰكَ خَلِيفَةً فِي ٱلْأَرْضِ فَٱحْكُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ ٱلْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن

سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌۢ بِمَا نَسُوا۟ يَوْمَ ٱلْحِسَابِ ﴾ [صٓ : ٢٦] .

تكليف الإنسان :

كلما ازداد تكريم الإنسان والعناية به ورعايته والتنويه بشأنه ، كلما تضاعفت مسؤولياته ، وحُمِّل تبعات جساماً تتناسب وقدره ، وتلتقي مع الدور الفعال الذي يقوم به في إدارة الأعمال ، والقيام بالتحركات المؤدية إلىٰ كل رفعة وسمو وتقدم وعلو . والدليل علىٰ ذلك ما يقوله علماء النفس : إذا أردت القضاء علىٰ إنسان فاتركه دون عمل ، أي أن إهماله دليل علىٰ الاستخفاف بشأنه والاستهانة بقدره .

لذا فإن الله سبحانه اختار الإنسان ليحمِّله تبعات التكليف بالتكاليف الإلهية ، ويجعله مسؤولاً عن أفعاله وأقواله وتحركاته في دورة حياته ، فقال تعالىٰ :

﴿ إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ﴾ [الأحزاب : ٧٢] .

والأمانة : هي التكاليف الشرعية من أوامر ونواهٍ ، وفرائض ومحرَّمات . والإنسان في القرآن الكريم هو الخليفة المسؤول من بين المخلوقات بما أودع الله فيه من عقل يفكر فيما يرىٰ ويسمع ، وبما استقر في نفسه من فطرة سوية ووجدان يرشدانه إلىٰ مسالك الخير ، وينفرانه ويبعدانه عن ألوان الشر ، ويوبخانه إن انحرف ، ويرتاحان إذا استقام ، ولله في خلقه شؤون وأحوال ، وتصرفات وتقديرات تقوم علىٰ الحق والعدل والرحمة والعلم بما يفعله الإنسان قبل أن يفعله ، ومن قبل أن يُخلَق أيضاً ؛ لأن علم الله تعالىٰ واسع شامل ، يعلم الماضي والحاضر والمستقبل ، قال الله تعالىٰ : ﴿ كُلُّ ٱمْرِئٍۭ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ ﴾ [الطور : ٢١] ، ﴿ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ ﴾ [المدثر : ٣٨] ، وقال

سبحانه : ﴿ ۞ وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَ ۚ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۚ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴾ [الأنعام : ٥٩] .

ومناط التكليف : العقل ، فلا تكليف بأي مهمة من دون عقل ، فهو أداة الإدراك والتلقي والاستيعاب ، وهو المذكّر بالواجب ، والدافع إلىٰ المطلوب ، والمقدر عواقب الأمور ، والمراقب لكل حركة وسكنة ، وغيرها من وظائف العقل الإنساني ، والعقل بصيرة ورشد ، وروية وتدبير ، وفهم وفكر ووازع وتخطيط وإبداع .

وما هذا الربط بين التكليف والعقل إلا آية علىٰ تكريم الإنسان ، وبيان شأنه وتقدير دوره في الحياة ، وهو أيضاً فضيلة تدل علىٰ تقدير نعمة العقل ، وجعله أداة الحكم علىٰ الأشياء بالخطأ أو الصواب وتمجيد العقل والتنويه به وكونه أداة فهم الخطاب الإلهي ، بوأه لأن يكون خاتمة كثير من آي القرآن الكريم ، مثل قوله تعالىٰ : ﴿ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾ [الرعد: ٤] ﴿ لَءَايَٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾ [آل عمران: ١٩٠] ﴿ لَءَايَٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلنُّهَىٰ ﴾ [طه: ١٢٨] ﴿ وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلَّا ٱلْعَٰلِمُونَ ﴾ [العنكبوت: ٤٣] ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ﴾ [النساء: ٨٢] ﴿ أَفَلَا يُبْصِرُونَ ﴾ [السجدة: ٢٧] ﴿ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴾ [النحل: ١٧] ﴿ أَفَلَا يَعْقِلُونَ ﴾ [يس: ٦٨] .

والعقل الإنساني العظيم حجة علىٰ أصحابه ، فهو ملاك الأمر وقوامه في تنفيذ الأوامر الإلهية واجتناب النواهي ، فقال الله تعالىٰ : ﴿ أَفَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَآ أَوْ ءَاذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا ۖ فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَٰرُ وَلَٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِى فِى ٱلصُّدُورِ ﴾ [الحج : ٤٦] ، وقال سبحانه : ﴿ وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ ۖ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ ءَاذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَا ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ كَٱلْأَنْعَٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْغَٰفِلُونَ ﴾ [الأعراف : ١٧٩] .

وأصبح العقل بهذا التكليف والتشريف الإلهي سبيلاً لإدراك أسرار الكون وآياته ، وفهم نظامه وحركته ، والاستفادة من معطياته ودروسه وآثاره .

وصار العقل كذلك هو قاعدة الحكم على الأشياء ، فلا مجال للكهان والمنجمين والمشعوذين والقصاصين والخرافيين وأصحاب الأساطير ، ولا للأحبار ورجال الدين ، ولا للسلطان والحاكم بالهوى والشهوة ، وإنما الحكم للعقل المجرد المهتدي بنور الهداية الربانية ، المتفاعل مع نظام التكليف الشامل للبشرية من دون تمييز بين الناس بسبب الجنس أو اللون أو العرق أو الأصل ؛ لأن العدل مع العقل ميزان التكليف وأساس التشريع ، ولا يعذر إنسان يطيع هواه أو يعطل عقله ، وينقاد لإمرة السادة المستكبرين أو الأحبار المتسلطين بسلطان الدين وحب المال ، قال الله تعالى : ﴿ ۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْأَحْبَارِ وَٱلرُّهْبَانِ لَيَأْكُلُونَ أَمْوَٰلَ ٱلنَّاسِ بِٱلْبَٰطِلِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ﴾ [التوبة : ٣٤] .

ومما نحمد الله عليه أن التشريع الإسلامي جاء مع تطور نضوج العقل البشري ، كما أبان الشيخ محمد عبده في رسالة التوحيد ، ولعل أعظم ما يدعم خلود الإسلام أنه دين العقل والحكمة ، ونحن في عصر التقدم العلمي الرائع لم يعد أحد يقبل بغير العقل والحكمة والرأي السديد ، وقد انحسر دور التضليل والتلاعب بالعقول والأفكار ومقدرات الشعوب والمناورات السياسية ، وأدرك الناس أن ميزان الحكم على التصرفات العامة والخاصة خاضع للعقل والتحليل والفهم وبُعْد النظر .

وتظل قدسية التكليف الإلهي فوق أي اعتبار ، فلا يسقط التكليف عن العاقل إذا تصادم مع إرادة بشرية أو نزوة طائشة ، ولا يمتنع

التكليف حال ادعاء الجهل أو عدم العلم ، لأن العقل ينمو بالعلم ، والعقل عقلان : مطبوع فطري ، ومكتسب إرادي ، والعقل المكتسب يكون بالتعلم ، والعلم يحقق واجب التكليف ويدل عليه ، ولا يعطله أو يلغيه ، قال الله تعالىٰ :

﴿ فَسْـَٔلُوٓاْ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾ [النحل : ٤٣] .

وخلاصة القول : إن ارتباط التكليف بالعقل دليل علىٰ إرادة الله ووجوده ووحدانيته ، وعلىٰ تكريم الإنسان والتنويه بمهامه ورسالته ، وعلىٰ أن المسؤولية شخصية فردية ذاتية ، فمن مفاخر الإسلام مبدأ : ﴿ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ﴾ [الأنعام : ١٦٤] ، ويوضحه قوله تعالىٰ : ﴿ وَكُلَّ إِنسَٰنٍ أَلْزَمْنَٰهُ طَٰٓئِرَهُۥ فِى عُنُقِهِۦ ۖ وَنُخْرِجُ لَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ كِتَٰبًا يَلْقَىٰهُ مَنشُورًا ﴾ [الإسراء : ١٣] .

بدء خليقة الإنسان :

خلق الله تعالىٰ الإنسان الأول وهو آدم عليه السلام من الطين المشتمل علىٰ التراب والماء ، والطين مادة ، والمعول عليه هو الروح التي نفخها الله في تلك المادة ، فلولا الروح والإرادة الإلهية والقدرة الربانية لما وجد الإنسان ، فالمكوّن والخالق والموجد إنما هو الله تعالىٰ ، وأما الطين فهو العنصر الذي وجد الخالق فيه الصفات الملائمة للتفاعل مع طبيعة الأرض التي يعيش فيها ذلك المخلوق .

وجاء بيان خلق الإنسان الأول في كثير من آي القرآن الكريم ، منها قوله تعالىٰ : ﴿ هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن طِينٍ ثُمَّ قَضَىٰٓ أَجَلًا ۖ وَأَجَلٌ مُّسَمًّى عِندَهُۥ ۖ ثُمَّ أَنتُمْ تَمْتَرُونَ ﴾ [الأنعام : ٢] ، ومنها قوله سبحانه : ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن طِينٍ ﴾ [المؤمنون : ١٢] . وقد يعبر عن الطين بالصلصال : وهو الطين اليابس الذي يشبه الفخار ، فقال الله تعالىٰ : ﴿ خَلَقَ

﴿ٱلْإِنسَٰنَ مِن صَلْصَٰلٍ كَٱلْفَخَّارِ ﴿١٤﴾ وَخَلَقَ ٱلْجَآنَّ مِن مَّارِجٍ مِّن نَّارٍ﴾

[الرحمن : ١٤-١٥] .

ثم خلق الله حواء من جنس آدم أو من نفسه ، فقال الله تعالىٰ : ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا﴾ [النساء : ١] ، فسَّر جماعة من المفسرين كالرازي ﴿وخلق منها﴾ أي من جنسها ، وفسرها آخرون بأن حواء خلقت من ضلع آدم . فهذان نوعان من الخلق : آدم خلق من غير أب ولا أم ، وحواء من أب فقط ، ثم خلق الله عيسىٰ عليه السلام من أم بلا أب ، ثم كان الخلق الأغلب المعتاد وهو خلق الناس من الجنسين : الذكر والأنثىٰ ، فقال تعالىٰ : ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ مِنَ ٱلْمَآءِ بَشَرًا فَجَعَلَهُۥ نَسَبًا وَصِهْرًا ۗ وَكَانَ رَبُّكَ قَدِيرًا﴾ [الفرقان : ٥٤] ، فآدم من تراب ، والنطفة بتحليل العلماء مكونة من عناصر التراب ، والأساس كله هو الروح التي يوجدها الله في الكائنات الحية كلها .

وكل إنسان مخلوق في أحسن تقويم ، سوي البنية ، كامل النشأة ، ومزود بالعقل والإرادة ، ومتميز علىٰ خلائق الأرض بالعقل والحكمة ، قال الله تعالىٰ : ﴿ٱلَّذِىٓ أَحْسَنَ كُلَّ شَىْءٍ خَلَقَهُۥ ۖ وَبَدَأَ خَلْقَ ٱلْإِنسَٰنِ مِن طِينٍ ﴿٧﴾ ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُۥ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ ﴿٨﴾ ثُمَّ سَوَّىٰهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِن رُّوحِهِۦ ۖ وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۚ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ﴾ [السجدة : ٧-٩] ، وقال سبحانه : ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِىٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾ [التين : ٤] .

وفي آيات قرآنية أوضح الله تعالىٰ مراحل خلق الإنسان ، وجمعها في آية شاملة مطابقة لما اكتشفه الأطباء وعلماء التشريح ، مثل قوله سبحانه : ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن طِينٍ ﴿١٢﴾ ثُمَّ جَعَلْنَٰهُ نُطْفَةً فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ ﴿١٣﴾ ثُمَّ خَلَقْنَا ٱلنُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا ٱلْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا ٱلْمُضْغَةَ عِظَٰمًا

﴿فَكَسَوْنَا ٱلْعِظَٰمَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَٰهُ خَلْقًا ءَاخَرَ ۚ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ﴾

[المؤمنون : ١٢ـ١٤] .

ولا حاجة بنا بعد هذا البيان الإلهي القاطع عن أصل خلق الإنسان إلىٰ إبطال نظرية النشوء والارتقاء للعالم الأوروبي داروين التي تزعم أن أصل الأحياء من إنسان وحيوان وطير هو كائن من خلية واحدة ، ثم تطور إلىٰ خليتين ، ثم أربع ، وهكذا ، وأن الإنسان تطور عن القرد ، لوجود تشابه بينهما في الرأس وغيره من الأعضاء ، فقد أبطل العلماء المعاصرون هذه النظرية ، وأبانوا خطأها قطعاً ، لأن هناك حلقة مفقودة بين الإنسان والقرد ، كما قال داروين نفسه ، وهو ذلك الكائن الذي تطور إليه القرد ، ثم تطور هو إلىٰ الإنسان ، ولماذا لم تتطور القردة الموجودة حالياً ، ولماذا لم يتطور الإنسان إلىٰ شيء آخر ؟ ثم إن نسبة الكروموزومات[1] في الإنسان أكثر منها في القرد ، مما يقطع بأن كلاً من طبيعة مستقلة عن الأخرىٰ .

وحدة المنشأ الإنساني :

الناس جميعاً متساوون في النوع الإنساني ، فهم من أصل واحد ، وأب واحد ، كلهم لآدم ، وآدم من تراب ، لا تفاضل ولا تمييز بينهم في الجنس واللون والعرق والعنصر ، وإنما التفاضل بينهم بالتقوىٰ (الكلمة الجامعة لكل الفضائل والأوامر والنواهي) والعمل الصالح .

والأصل الإنساني الواحد هو ما أعلنه القرآن الكريم في قوله تعالىٰ :

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا

(١) وهي الصبغيات المكونة للصفات الخَلْقية للأعضاء والخُلقية والوراثية .

كَثِيرًا وَنِسَآءً ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ٱلَّذِى تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلْأَرْحَامَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ﴾

[النساء : ١] .

وكون الناس من أصل واحد ، لا من أصول متعددة : إعلان قاطع صريح لمبدأ المساواة بين البشر ، وإشعار لهم بضرورة التعاون والتعارف ، وتبادل المنافع ، وإشاعة الأمن والسلام ، والحب والود والاستقرار في ربوع الأرض ، وقد أبان القرآن الكريم مبدأ التسوية في الخَلْق ، فقال الله تعالىٰ :

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓا۟ ۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴾ [الحجرات : ١٣] .

وإذا تعدد البشر شعوباً وقبائل كما أشارت الآية المذكورة ، فإن هذا التعدد لا ينسيهم الأصل الأول ، ولا يمنعهم من إحكام صلة التعارف والتعاون بينهم ، وإنما يذكرهم دائماً بأنهم مخلوقون من خالق واحد ، ويعرّفهم بالرب الواحد الذي أوجدهم من العدم ، ورباهم وتعهدهم بالعناية والرعاية ، وما تزال عنايته ورعايته ملازمة لهم في جميع أطوار حياتهم حتىٰ الممات .

بل إن هذا التعدد شعوباً وقبائل من أقوىٰ عوامل التقارب والتفاهم ، لا التباعد والتباغض ، فإن تعدد المخلوقات ، وتفاوت الأصناف ، وتغاير الألسنة ، والأصوات واللغات والألوان آية علىٰ وحدة الخالق الموجد ، كما قال تعالىٰ :

﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ خَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَٰنِكُمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّلْعَٰلِمِينَ ﴾ [الروم : ٢٢] .

ووحدة الخالق تقتضي وحدة المخلوقات ، وأن الناس أمة واحدة مهما تباعدت ديارهم وأوطانهم ، وتباينت طبائعهم وعاداتهم ،

وتغايرت أوضاعهم الحضارية ، فقال الله تعالىٰ : ﴿وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ لَّا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَٰنُ الرَّحِيمُ﴾ [البقرة : ١٦٣] ، وقال عز وجل : ﴿وَمَا كَانَ النَّاسُ إِلَّا أُمَّةً وَاحِدَةً فَاخْتَلَفُوا وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ فِيمَا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ [يونس : ١٩] .

والتقابل بين الوحدتين السابقتين معناه وحدة المعاملة ، فالله تعالىٰ يسوِّي بين العباد ، ويمنحهم الرحمة ، ويحكم بينهم بالعدل والإنصاف ، ويحاسبهم علىٰ أعمالهم بميزان واحد ، فلا يكيل لفلان بكيل ولآخر بكيل غيره ، ولا يحابي في الحساب أحداً ، ولكن لله أن يعفو ويتفضل علىٰ عباده بالرحمة والمغفرة ودخول الجنان ، يفعل ما يشاء ، لا رادَّ لقضائه ، ولا معقِّب علىٰ حكمه ، قال الله تعالىٰ : ﴿قُلِ اللَّهُمَّ فَاطِرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ عَالِمَ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ أَنتَ تَحْكُمُ بَيْنَ عِبَادِكَ فِي مَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ [الزمر : ٤٦] .

أوضحت في القسم الأول من هذا البحث مكانة الإنسان في القرآن الكريم والشرائع الإلهية ، وأبنت أن جميع ما في الكون مخلوق لخير الإنسان ونفعه ، وأن الإنسان هو الخليفة الصالح في الأرض من بين مخلوقات الله ، والخلافة تقتضي المسؤولية والتكليف ليتميز المحسن من المسيء ، والناس قاطبة علىٰ قدم المساواة في التكاليف الإلهية والطبيعة الإنسانية أو النوع البشري ؛ لأن وحدة الخالق تقتضي وحدة المخلوقات . وأتابع في بيان عناصر أخرىٰ من هذا البحث لمعرفة مدىٰ تكريم الإنسان عند خالقه ، وطبيعة تكوينه المادية والروحية ، وصفاته الخَلْقية والخُلُقية ، ليكون الإنسان في حذر دائم ، وحاكماً حازماً علىٰ نفسه ، مجاهداً لها ، محققاً التوازن في نهاية المطاف بين نازعات الخير والشر ، ومختاراً الأفضل والأجدىٰ نفعاً في صراع الخير والشر ، والفضيلة والرذيلة ، والميول والأهواء النافعة والضارة .

تكريم الإنسان إلىٰ الأبد :

الإنسان صنع الله الذي أتقن كل شيء ، وأثره العجيب الذي أودع فيه أسرار القدرة الإلهية الفائقة ، وحقائق المشيئة الربانية ، والحكمة السرمدية ، ليكون الحاكم الأمين القادر في الأرض ، والخليفة الصالح في الدنيا ، مما اقتضىٰ تكريم الله للإنسان : تكريم العنصر البشري بذاته ، وتميزه وتفضيله بالعقل الذي هو أداة المعرفة ، وسبيل الإنجاز والبناء ، ومفتاح الكون ، ومفجر طاقاته ، مع التزام مبدأ العبودية الحقة لله الخالق ، قال الله تعالىٰ : ﴿ صِبْغَةَ ٱللَّهِ ۖ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ صِبْغَةً ۖ وَنَحْنُ لَهُۥ عَٰبِدُونَ ﴾ [البقرة : ١٣٨] .

أما تكريم العنصر البشري بذاته فيتجلىٰ فيما أمر الله به الملائكة من السجود لآدم أبي البشر عليه السلام سجود تحية وتعظيم ، لا سجود عبادة وتقديس أو تأليه ، فقال الله سبحانه : ﴿ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَٱسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾ [البقرة : ٣٤] ، وفي آية أخرىٰ : ﴿ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ ٱلْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِۦٓ ۚ أَفَتَتَّخِذُونَهُۥ وَذُرِّيَّتَهُۥٓ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِى وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌۢ ۚ بِئْسَ لِلظَّٰلِمِينَ بَدَلًا ﴾ [الكهف : ٥٠] .

وأما تمييز الإنسان وتكريمه بالعقل الذي هو أداة هداية ورشد وخير إذا حسنت المحاكمة وصدقت التأملات والمشاهدات ، فيظهر فيما قصَّه القرآن الكريم علينا ، وأخبرنا الله تعالىٰ به في بيان مدىٰ فضله علىٰ الإنسان وإحسانه له ، فقال سبحانه : ﴿ ۞ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِىٓ ءَادَمَ وَحَمَلْنَٰهُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا ﴾ [الإسراء : ٧٠] ، كرَّم الله الإنسان بالعقل والحواس ، فجعل له سمعاً وبصراً وفؤاداً يفقه به الأشياء ، ويميز به بين الخير

والشر ، وبين الضار والنافع ، ويدرك به منافع الأشياء وخواصها ومضارّها في الأمور الدينية والدنيوية . وقد استدل العلماء بهذه الآية علىٰ أفضلية جنس البشر علىٰ جنس الملائكة . روىٰ الطبراني عن عبد الله بن عمرو قال : قال رسول الله ﷺ : « ما شيء أكرم علىٰ الله يوم القيامة من ابن آدم ، قيل : يارسول الله ، ولا الملائكة ؟ قال : ولا الملائكة ، الملائكة مجبورون بمنزلة الشمس والقمر » .

الطبيعة المادية والروحانية في الإنسان :

من المعلوم أن حقيقة تكوين الإنسان التي فطر عليها قائمة علىٰ المادية والروحية ، فهو جسد وروح متلازمان معاً ، فله نزعات بشرية شهوانية أو نزعة شر ، كما أن له أيضاً ميولاً طيبة أو نزعة خير ، وتتغلب إحدىٰ النزعتين علىٰ الأخرىٰ بالتمييز والعقل وجهاد النفس ، وكان تشريع القرآن لصالح الإنسان في الدنيا والآخرة منطلقاً من وجود هذه الطبيعة المزدوجة والنظرة الواقعية المعتدلة التي لا إفراط فيها ولا تفريط ، وتعتمد علىٰ إيجاد توازن بين المطلبين ، وتوسط في تحقيق الغايتين ، كشأن وسطية الإسلام في كل شيء ، ومنها التوازن بين النزعة الفردية والنزعة الجماعية في النظام الاقتصادي الإسلامي ، ونظام الحكم الديمقراطي ، وهذا هو الاتجاه الحديث الذي برز بعد انهيار النظام الشيوعي في الاتحاد السوفيتي في آب ١٩٨٩ ، ولقد قرأت اليوم مقالاً يمثل هذا الاتجاه في مجلة « المجال » ص ٢٤٥ ، محرم ١٤١٢ ـ آب ١٩٩١ ، يقول فيه الكاتب رايموند غاستيل : « ينبغي علىٰ الشعوب السائرة نحو الحكم الديمقراطي أن تحاول الموازنة بين حقوق الفرد وحقوق الجماعة » .

أما تحقيق التوازن والاعتدال بين المادية والروحية في تشريع

القرآن ، فواضح من عناية التشريعات الإسلامية بكلا الناحيتين ، فلم يحجب الله الإنسان أو يمنعه من إرواء مطالب الجسد ، وإنما أباح له الاستمتاع بطيبات الحياة وبالمتعة الزوجية القائمة علىٰ أساس العقد الصحيح المعلن للناس ، القائم علىٰ الإيجاب والقبول والتراضي السليم بين العاقدين ، من غير إكراه ولا تغرير أو تدليس ، ولا إسراف ولا استغلال ، ولا مبالغة . ولم يهمل التشريع القرآني جانب الروح أيضاً ، وتهذيب النفس ، وتلبية مطالبها وتنمية الميول الخيِّرة ، وإغناءها بالقيم السامية العليا ، وترغيبها بالفضائل ، وتنفيرها من الرذائل ، وإشباعها بالعواطف الإنسانية ، وتوجيهها نحو المثل الكريمة الصالحة .

قال الله تعالىٰ فيما يتعلق بالجانب المادي أو الجسدي والاستمتاع بالحياة المعيشية : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُحَرِّمُواْ طَيِّبَٰتِ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴿٨٧﴾ وَكُلُواْ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ حَلَٰلًا طَيِّبًا وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِيٓ أَنتُم بِهِۦ مُؤْمِنُونَ ﴾ [المائدة : ٨٧ـ٨٨] وهذا نص صريح في إباحة الطيبات ، والبعد عن الخبائث والمحرمات ، وتلك هي مهمة أساسية لرسول الله ﷺ الموصوف في الكتب الإلهية السابقة كالتوراة في قوله تعالىٰ عنه :

﴿ وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ ﴾ [الأعراف : ١٥٧] .

وفي المظهر والملبس ، أمر الله سبحانه بأخذ الزينة للعبادة ، ورسم للإنسان سياسة الإنفاق من غير إسراف ولا تقتير ، فقال : ﴿ ۞ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ خُذُواْ زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَكُلُواْ وَٱشْرَبُواْ وَلَا تُسْرِفُوٓاْ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴿٣١﴾ قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِيٓ أَخْرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزْقِ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْأَيَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴾ [الأعراف : ٣١ـ٣٢] . وأمّا نظام الإنفاق فهو الترشيد السديد المعتدل كما أمر تعالىٰ بقوله ناهياً عن البخل والتقتير ، والإسراف والتبذير : ﴿ وَلَا

﴿تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا﴾ [الإسراء : ٢٩] وفي النشاط الاقتصادي الحر ، جعل الله تعالىٰ السعي للدنيا كالسعي للآخرة فقال : ﴿وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا﴾ [القصص : ٧٧] .

وأمّا إغناء الروح بالقيم الخيرة : فهو مقصد تشريعي أساسي من مقاصد القرآن الكريم ، قال تعالىٰ آمراً بمجاهدة النفس وعدم الانسياق في إشباع غرائزها : ﴿وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ هُوَ اجْتَبَاكُمْ﴾ [الحج : ٧٨] . وقال سبحانه : ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا ۝٩ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّاهَا﴾ [الشمس : ٩-١٠] أي نجح ونجا من نمّىٰ عوامل الخير في نفسه ، وطهرها من الذنوب والمعاصي ، وخسر من أهملها وأخفاها بالمعصية ، ولم يعمل علىٰ تنمية العواطف الخيِّرة فيها ، وتركها في غرائزها الطبيعية تسرح وتمرح .

ولو تتبعنا آيات كثيرة أخرىٰ من القرآن الكريم ، لوجدنا فيها الاتجاه المتوازن المعتدل بين مطالب الروح ومطالب الجسد ، دون انفصال بينهما ، أو انقطاع بين العقل والمادة ، أو تجاف وتنافر بين دين ودنيا ، أو تعارض بين العمل للدنيا بمختلف مظاهر الحضارة ، والعمل للآخرة في شتىٰ درجاتها ومراتبها ، والعقيدة الإسلامية أو التشريع القرآني جعل الإحسان للروح مثل الإحسان للجسد دون إسراف ولا انحراف ولا جور . وهذا ما يساعد العلماء والقضاة والأطباء في الحكم علىٰ النفس الإنسانية ، فإن كان هناك اعتدال ، تحقق الخير ، وإن كان هناك جنوح وإسراف ، وجور وظلم ، وبغي وعدوان ، ظهر الشر ، وبانت الحاجة الماسة إلىٰ العلاج والإصلاح ، وقد يكون الغنىٰ سبباً لطغيان الإنسان وإسرافه ، فيجب توجيهه نحو الخير العام ، لذا حذر الله تعالىٰ من مخاطره إن لم يحسن صاحبه

إدارته وإنفاقه ، فقال :

﴿ كَلَّآ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَيَطْغَىٰٓ ۝٦ أَن رَّءَاهُ ٱسْتَغْنَىٰٓ ﴾ [العلق : ٦ـ٧] .

صفات الإنسان الخَلْقية والخُلُقية :

هناك توازن أيضاً في غرائز الإنسان وصفاته المادية الطبيعية والخلُقية الأدبية ، وحينما يذكر القرآن هذه الصفات ، يجعل الخير الطيب المليح منها مدعاة لشكر النعمة والمحافظة عليها ، ويجعل الخبيث والشر منها موطناً للحذر واليقظة وعدم الإفراط فيها ، والتنبه إلىٰ خطورتها حال الاسترسال فيها ، والاستجابة المطلقة غير المتأنية ولا المعقولة لدواعيها وسلطانها وتأثيرها ، فكما أن الإنسان مطبوع علىٰ صفات شهوانية ، مطبوع أيضاً علىٰ خصائص خيِّرة ، فيكون قادراً علىٰ التغلب علىٰ صفات السوء وقمعها أو تعديلها وتصعيدها نحو الأفضل .

أمّا الصفات والخصائص المادية ، فأهمها ثلاث :

١ـ جمال الخلقة والتكوين والصورة : خلق الله الإنسان في أحسن تقويم وأكمل صورة وأجمل خِلْقة ، وجعل مظهره وباطنه وحواسه وأعضاءه تجمع بين المنفعة والجمال ، فقال سبحانه : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَٰنُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ ٱلْكَرِيمِ ۝٦ ٱلَّذِى خَلَقَكَ فَسَوَّىٰكَ فَعَدَلَكَ ۝٧ فِىٓ أَىِّ صُورَةٍ مَّا شَآءَ رَكَّبَكَ ﴾ [الانفطار : ٦ـ٨] . وأقسم الله تعالىٰ بأن تلك البُنْية والهيئة الإنسانية هي أقوم وأكمل الصور المخلوقة ، فقال :

﴿ وَٱلتِّينِ وَٱلزَّيْتُونِ ۝١ وَطُورِ سِينِينَ ۝٢ وَهَٰذَا ٱلْبَلَدِ ٱلْأَمِينِ ۝٣ لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِىٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ﴾ [التين : ١ـ٤] .

وتلك الصورة مزدانة بالفكر المتفتح ، مدعمة ومزودة بالعقل الذي به يستطيع الإنسان معرفة صفات الله والشرائع ، والضار والنافع ،

ومعرفة نفسه ، قال ابن العربي : ليس لله تعالىٰ خلْق أحسن من الإنسان ، فإن الله خلقه حياً عالماً ، قادراً مريداً متكلماً سميعاً بصيراً ، مدبراً حكيماً ، وهذه من صفات الرب سبحانه ، وعبَّر عنها بعض العلماء ، ووقع البيان لكل ذلك بقوله ﷺ ـ فيما يرويه الإمام مسلم ـ : « إن الله خلق آدم علىٰ صورته » يعني علىٰ صفاته التي ذكرت .

٢ـ **جمال المظهر الكمالي** : كمّل الله تعالىٰ الإنسان بنعمة الستر واللباس والزينة الظاهرة ، فإن اللباس أو الزينة مظهر حضاري متقدم ، يحقق الجمال ، ويحفظ الهيبة والاعتبار ، ويصون السمعة ، وأما العُرْي والتبذل وكشف العورات ، فهو مظهر بدائي متخلف مرفوض فطرة وذوقاً وأدباً ، لذا امتن الله تعالىٰ علىٰ البشر بنعمة الستر واللباس ، فقال : ﴿ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ قَدۡ أَنزَلۡنَا عَلَيۡكُمۡ لِبَاسٗا يُوَٰرِي سَوۡءَٰتِكُمۡ وَرِيشٗاۖ وَلِبَاسُ ٱلتَّقۡوَىٰ ذَٰلِكَ خَيۡرٞۚ ذَٰلِكَ مِنۡ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ لَعَلَّهُمۡ يَذَّكَّرُونَ ﴾ [الأعراف : ٢٦] أي إن لباس التقوىٰ ، وهو العمل الصالح لا شك خير من اللباس الظاهري الخالي من العمل الطيب ، فأي فائدة أو فضل في لباس حسن جميل ، تجرد صاحبه من القيم والأخلاق ، وأعمال الصلاح ، وطاعة الله عز وجل ، فلا بد من تجميل الظاهر والباطن معاً ، لذا أمر الله تعالىٰ بالتجمل بالثياب حين أداء الصلاة لتحقيق هذا المقصود ، فقال : ﴿ ۞ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ خُذُواْ زِينَتَكُمۡ عِندَ كُلِّ مَسۡجِدٖ ﴾ [الأعراف : ٣١] أي عند كل صلاة ، وهذا وإن كان خطاباً لمن كان يطوف من العرب حول البيت الحرام عرياناً ، فالمقصود به الخطاب لجميع العالم ، كما قال القرطبي وغيره من المفسرين .

٣ـ **كمال الصحة وجمال الأجسام** : إن استمرار حياة الإنسان مرهون بقوة جسده ، وشدة بنيته ، وجمال أعضائه ، ولا تقوىٰ البُنْية والأعضاء إلا بالغذاء والرياضة والنشاط والحركة ، والبعد عن كل

المؤذيات وأنواع المضار ، ومن أجل ذلك أمر الله تعالىٰ بجعل الغذاء من طيبات الرزق المستطابة للنفس ، فقال : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ كُلُواْ مِمَّا فِي ٱلْأَرْضِ حَلَٰلًا طَيِّبًا وَلَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ ۚ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴾ [البقرة : ١٦٨] ، وأكد الله تعالىٰ تناول الطيبات واجتناب المستخبثات الضارة ، فقال : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُلُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ وَٱشْكُرُواْ لِلَّهِ ﴾ [البقرة : ١٧٢] وقال سبحانه : ﴿ ٱلْيَوْمَ أُحِلَّ لَكُمُ ٱلطَّيِّبَٰتُ ﴾ [المائدة : ٥] ووصف الله نبيه في التوراة كما تقدم بقوله : ﴿ وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ ﴾ [الأعراف : ١٥٧] وإتماماً لهذا المبدأ حرَّم الله تعالىٰ المحرمات الأربعة ونحوها فقال : ﴿ حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةُ وَٱلدَّمُ وَلَحْمُ ٱلْخِنزِيرِ وَمَآ أُهِلَّ لِغَيْرِ ٱللَّهِ بِهِۦ ﴾ [المائدة : ٣] أي إن ما ذبح للأصنام والأوثان فيه إضرار بالعقيدة ، وتلويث لطهر النفس التي لا يصح أن تعبد غير الله تعالىٰ مصدر الحلال والحرام ، فكان الضرر المعنوي كالضرر المادي تماماً ، وهذا مبدأ معروف ومقرر في نظام الحياة وأعراف الناس والقوانين السائدة .

وليس غريباً بعد هذا أن يعنىٰ القرآن الكريم بتوجيه الإنسان إلىٰ ضرورة اختيار نوع طعامه وشكر المنعم عليه ، فقال الله عز وجل : ﴿ فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَٰنُ إِلَىٰ طَعَامِهِۦٓ ﴿٢٤﴾ أَنَّا صَبَبْنَا ٱلْمَآءَ صَبًّا ﴿٢٥﴾ ثُمَّ شَقَقْنَا ٱلْأَرْضَ شَقًّا ﴿٢٦﴾ فَأَنۢبَتْنَا فِيهَا حَبًّا ﴿٢٧﴾ وَعِنَبًا وَقَضْبًا ﴿٢٨﴾ وَزَيْتُونًا وَنَخْلًا ﴿٢٩﴾ وَحَدَآئِقَ غُلْبًا ﴿٣٠﴾ وَفَٰكِهَةً وَأَبًّا ﴿٣١﴾ مَّتَٰعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَٰمِكُمْ ﴾ [عبس : ٢٤-٣٢] والأبّ : المرعىٰ .

وأمّا **الصفات والخصال المعنوية الأدبية** ، فكثيرة أهمها ما يأتي :

١- **ضعف الإنسان** : خلق الإنسان ضعيفاً مادة ومعنىٰ ، حساً واختياراً وإرادة ، فهو بحاجة مستمرة إلىٰ الطعام والشراب والراحة والنوم ليلاً ونهاراً ، وهو كثير المخاوف ، ضعيف خائر القوىٰ عند

الشدائد والأزمات ، ويشكو عند المصاعب ، ويتأوه في المرض ، ويئن وقت المصيبة ، ويسترخي عند الصدمة ، صحيح شحيح ، يأمل الغنىٰ دوماً ويخشىٰ الفقر ، فكان من رحمة الله به تكليفه بما يستطيع تحمله ، والتكليف خفيف سهل يسير ، والدين سمح سهل ، ولم يجعله الله ضيقاً حرجاً صعباً ، قال الله تعالىٰ : ﴿ يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُخَفِّفَ عَنكُمْ ۚ وَخُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ ضَعِيفًا ﴾ [النساء : ٢٨] ، ﴿ لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ۚ ﴾ [البقرة : ٢٨٦] ، ﴿ يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ ﴾ [البقرة : ١٨٥] ، ﴿ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِى ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍ ۚ ﴾ [الحج : ٧٨] ، ﴿ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ مَا ٱسْتَطَعْتُمْ وَٱسْمَعُوا۟ وَأَطِيعُوا۟ ﴾ [التغابن : ١٦] ، وضمن الله لعباده الرزق ويسره لهم تطميناً لهم ومراعاة لضعفهم فقال : ﴿ وَفِى ٱلسَّمَآءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ ﴿٢٢﴾ فَوَرَبِّ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ إِنَّهُۥ لَحَقٌّ مِّثْلَ مَآ أَنَّكُمْ تَنطِقُونَ ﴾ [الذاريات : ٢٢-٢٣] ، ﴿ ۞ وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزْقُهَا ﴾ [هود : ٦] ، ﴿ وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾ مَآ أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَآ أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ ﴿٥٧﴾ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلْقُوَّةِ ٱلْمَتِينُ ﴾ [الذاريات : ٥٦-٥٨] .

٢- نزعة الإنسان إلىٰ البطر والطغيان : الإنسان ميّال غالباً إلىٰ البطر عند النعمة ، والاسترسال في الملذات حين السعة ، والانسياق في الشهوات حال الرفاهية ، وقد حذره الله في القرآن المجيد من هذه الأمراض النفسية ، فقال : ﴿ كَلَّآ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَيَطْغَىٰٓ ﴿٦﴾ أَن رَّءَاهُ ٱسْتَغْنَىٰٓ ﴾ [العلق : ٦-٧] ، وقال سبحانه : ﴿ وَإِذَآ أَنْعَمْنَا عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ أَعْرَضَ وَنَـَٔا بِجَانِبِهِۦ ۖ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ كَانَ يَـُٔوسًا ﴾ [الإسراء : ٨٣] ، وقال عز وجل : ﴿ وَإِذَآ أَذَقْنَا ٱلنَّاسَ رَحْمَةً فَرِحُوا۟ بِهَا ۖ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌۢ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ إِذَا هُمْ يَقْنَطُونَ ﴾ [الروم : ٣٦] ، وهذا كله شأن الجاحد النعمة ، ضعيف الإيمان ، أمّا المؤمن فشأنه الشكر عند الرخاء ، والصبر عند البلاء ، والرضا بالقضاء ، ولذا ورد استثناء المؤمنين عقب قوله تعالىٰ في آيتين : ﴿ وَلَئِنْ أَذَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِنَّا رَحْمَةً ثُمَّ

نَزَعْنَٰهَا مِنْهُ إِنَّهُۥ لَيَـُٔوسٌ كَفُورٌ ﴿٩﴾ وَلَئِنْ أَذَقْنَٰهُ نَعْمَآءَ بَعْدَ ضَرَّآءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ ذَهَبَ ٱلسَّيِّـَٔاتُ عَنِّىٓ ۚ إِنَّهُۥ لَفَرِحٌ فَخُورٌ ﴾ [هود : ٩-١٠] فقال سبحانه عقب ذلك : ﴿ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ ﴾ [هود : ١١] .

٣ـ الاتصاف بالهلع والجزع والبخل : يجزع الإنسان ويتألم حين نزول الشر به ، ويبخل عند إقبال الخير عليه . وهذا خلق غير سوي ، ذمه الله بقوله في وصف الإنسان : ﴿ ۞ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ خُلِقَ هَلُوعًا ﴿١٩﴾ إِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ جَزُوعًا ﴿٢٠﴾ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلْخَيْرُ مَنُوعًا ﴿٢١﴾ إِلَّا ٱلْمُصَلِّينَ ﴿٢٢﴾ ٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ دَآئِمُونَ ﴾ [المعارج : ١٩-٢٢] قال الزمخشري : أريد بالإنسان الناس ، فلذلك استثنىٰ منه ﴿إلا المصلين﴾ . وأما بخل الإنسان فمذموم أيضاً كما قال تعالىٰ : ﴿ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لِرَبِّهِۦ لَكَنُودٌ ﴿٦﴾ وَإِنَّهُۥ عَلَىٰ ذَٰلِكَ لَشَهِيدٌ ﴿٧﴾ وَإِنَّهُۥ لِحُبِّ ٱلْخَيْرِ لَشَدِيدٌ ﴾ [العاديات : ٦-٨] ، وقال سبحانه : ﴿ قُل لَّوْ أَنتُمْ تَمْلِكُونَ خَزَآئِنَ رَحْمَةِ رَبِّىٓ إِذًا لَّأَمْسَكْتُمْ خَشْيَةَ ٱلْإِنفَاقِ ۚ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ قَتُورًا ﴾ [الإسراء : ١٠٠] أي مبالغاً في البخل .

٤ـ التسرع في طلب الأشياء : يتعجل الإنسان النتائج عادة ، ويلح في طلب الخير ، ولا يتأنىٰ تأني المبصر في محاولات الحصول علىٰ الأرباح والمنافع ، فيجلب العذاب أحياناً عليه ، قال تعالىٰ واصفاً فيه هذا الخُلق : ﴿ وَيَدْعُ ٱلْإِنسَٰنُ بِٱلشَّرِّ دُعَآءَهُۥ بِٱلْخَيْرِ ۖ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ عَجُولًا ﴾ [الإسراء : ١١] ، وقال سبحانه : ﴿ خُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ مِنْ عَجَلٍ ۚ سَأُو۟رِيكُمْ ءَايَٰتِى فَلَا تَسْتَعْجِلُونِ ﴾ [الأنبياء : ٣٧] .

٥ـ قلة الوفاء بالمعروف وعدم الثبات علىٰ المبدأ : الإنسان سريع النسيان ، قليل الوفاء ، كثير الجحود وإنكار المعروف ، يتقلب بسرعة في أحواله ، ولا يثبت علىٰ المبدأ الكريم ، يتنكر لمن يحسن إليه ،

علماً بأن أوسع المحسنين إليه هو الله الخالق الرزّاق له ، أخرج البخاري ومسلم عن أبي موسىٰ الأشعري رضي الله عنه قال : « ليس أحدٌ أصبرَ علىٰ أذىً سمعه من الله ، إنهم ليَجعلون له ولداً ، ويجعلون له أنداداً ، وهو مع ذلك يعافيهم ويرزقُهم » والإنسان قليل الوفاء بالمعروف ، يعرف ربه عند الشدة ، وينساه في حال الرخاء ، وصف الله سبحانه هذا الواقع بقوله : ﴿ وَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَٰنَ ٱلضُّرُّ دَعَانَا لِجَنۢبِهِۦٓ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَآئِمًا فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُۥ مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَآ إِلَىٰ ضُرٍّ مَّسَّهُۥ كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْمُسْرِفِينَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾ [يونس : ١٢] . وهناك واقع آخر مشاهد بين الناس كثيراً صوَّره القرآن في قوله عز وجل : ﴿ وَإِذَا غَشِيَهُم مَّوْجٌ كَٱلظُّلَلِ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ فَلَمَّا نَجَّىٰهُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ فَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ ۚ وَمَا يَجْحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَّا كُلُّ خَتَّارٍ كَفُورٍ ﴾ [لقمان : ٣٢] . وربما كان أجمع آية لهذه الصفات قوله سبحانه : ﴿ وَإِن تَعُدُّوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ ۗ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ ﴾ [إبراهيم : ٣٤] ، وقوله عز وجل في بيان ميل الإنسان إلىٰ الكفر والجحود : ﴿ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَكَفُورٌ مُّبِينٌ ﴾ [الزخرف : ١٥] ، وقوله تعالىٰ : ﴿ قُتِلَ ٱلْإِنسَٰنُ مَآ أَكْفَرَهُۥ ﴾ [عبس : ١٧] أي ما أشد كفره وجحوده ، وهذا شأن الكافر ، أما المؤمن فشأنه الإقرار بالنعم والشكر عليها ، قال تعالىٰ : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ ﴾ [يونس : ٦٠] .

٦ـ **الميل إلىٰ الظلم** : يتعرض الإنسان أحياناً في فترات ضعفه وقلة رويَّته إلىٰ الطيش والحماقة والاستبداد وظلم الآخرين والتعدي عليهم ، بل إنه قد يظلم نفسه ، وفي كلا الحالين هو الذي يجني عاقبة الظلم ؛ لأن الظلم لا يدوم ، وأخطاره تصيب الظالم ذاته ، وجزاء الظلم شديد ، فيه خسارة لنفس الظالم أولاً ، وللأمة والمجتمع بعدئذ ، لذا تكرر في القرآن الكريم التنديد بالظلم ، والإنذار بأنه

ظلمات يوم القيامة ، وترددت الإشارة إلىٰ الظلم في القرآن المجيد أكثر من عشرين مرة ، قال الله تعالىٰ : ﴿ فَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾ [التوبة : ٧٠] فالظلم تدمير لمصالح الفرد والجماعة ، وللأمة والدولة ، وللمصالح الشخصية والاجتماعية ، وما أقبح الظلم والاعتداء علىٰ الحقوق ؛ لأنه تجاوز علىٰ القيم ، وافتئات علىٰ الآخرين ، وأخذ لأموال الناس بالباطل ، وسطو علىٰ الأعراض والحرمات والكرامة الإنسانية .

٧ـ **حب الجدل** : الجدل نوعان : محمود ومذموم ، أمّا المحمود : فهو الإقناع بالحق ، والإرشاد للاعتقاد الصحيح ، وإبانة منهج الاستقامة ، وإثبات صحة المعارف والعلوم ، والتخطيط لمستقبل أفضل في حياة الأمة السياسية والاقتصادية والاجتماعية . وأمّا الجدل المذموم : فهو المراء ، وهو كثير بين الناس ، حباً في مناصرة الهوىٰ ، وتأييد الباطل ، وطمس معالم الحق .

والجدل المحمود مطلوب عند الحاجة إليه ، أمّا الجدل المذموم فهو منبوذ منفّر موقع في الضلال ، وهو شأن الكافرين ؛ لأنه محاولة لإقرار الباطل ، بعد اتضاح الحقيقة ، وقد ذمّ الله تعالىٰ هذا النوع بقوله : ﴿ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلًا ﴾ [الكهف : ٥٤] أي أكثر الأشياء التي يتأتىٰ منها الجدال جدلاً . ووصف الله الكافرين بما هو شأنهم بقوله : ﴿ وَجَٰدَلُواْ بِٱلْبَٰطِلِ لِيُدْحِضُواْ بِهِ ٱلْحَقَّ فَأَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ ﴾ [غافر : ٥] ، وقوله أيضاً : ﴿ وَيُجَٰدِلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِٱلْبَٰطِلِ لِيُدْحِضُواْ بِهِ ٱلْحَقَّ وَٱتَّخَذُوٓاْ ءَايَٰتِي وَمَآ أُنذِرُواْ هُزُوًا ﴾ [الكهف : ٥٦] وأكد سبحانه وجود صفة الجدل في الكافر بقوله : ﴿ أَوَلَمْ يَرَ ٱلْإِنسَٰنُ أَنَّا خَلَقْنَٰهُ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ ﴾ [يس : ٧٧] .

هذا هو إنسان القرآن ، إنسان الماضي والحاضر والمستقبل ، إنه خليفة في الأرض ، ومسؤول مكلّف بطاعة ربه وبعمارة الكون ، والتكليف دليل التكريم ، وأكرم الخلق عند الله ، وله مهماته ومسؤولياته العظمىٰ في الحياة ، والشأن فيه أن يكون حياً دائم الحركة والعطاء والنفع ، وهو معظَّم في كل حال عند الله والناس وفي التاريخ الخالد إذا استقام وأحسن وأنتج ، ومهمل ومزدرىٰ وأخو عارٍ إذا قصَّر وأساء ، ومقوماته الإيجابية كثيرة ورفيعة ، أساسها الحكمة والعقل والرشد والهداية إلىٰ الطريق القويم ، يستطيع بها وبهداية الله له في قرآنه أن يتغلب علىٰ نزعات الشر لديه ، ويقمع شهواته ، ويتخلص من عيوبه ، وما ذلك بالأمر الصعب عليه ، فلا تسمو إنسانية الإنسان دون جهاد النفس ، وجعلها مصدر إشعاع لكل خير وفضيلة ، وأداة كل تقدم وحضارة ، وسبيل كل بناء ورفعة ، ونفع للأمة والوطن الكبير والإنسانية جمعاء ، ومنهاجه ما قال الحق تعالىٰ : ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَكُم بُرْهَٰنٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ نُورًا مُّبِينًا﴾ [النساء : ١٧٤] ، وقال سبحانه : ﴿قَدْ جَآءَكُم بَصَآئِرُ مِن رَّبِّكُمْ فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِۦ وَمَنْ عَمِىَ فَعَلَيْهَا وَمَآ أَنَا۠ عَلَيْكُم بِحَفِيظٍ﴾ [الأنعام : ١٠٤] .

* * *

الإنسان في القرآن الكريم
بمنظور رسائل النور للداعية سعيد النورسي

تمهيد[١] :

الحمد لله وحده ، والصلاة والسلام علىٰ من لا نبي بعده ، وعلىٰ صفوة عباده ورسله وأوليائه وأئمة العلم والهدىٰ إلىٰ يوم الدين ، وبعد :

فهذا بحث تحليلي عن « الإنسان في القرآن الكريم بمنظور رسائل النور » لمؤلفها الداعية والعلامة المصلح بديع الزمان النورسي[٢] ، يتبين فيه أن الإنسان وسيلة وغاية ، ونجاح الوسيلة يتحقق بالإعداد الإلهي السديد للإنسان ، وتسليحه بإمكانات وطاقات عجيبة وغريبة ، مكَّنه من الإفادة من مخزونات الكون ، ووجَّهه نحو الوصول إلىٰ الغاية القريبة في الدنيا : وهي إعمار الكون وتقديمه ، وتجميله من خلال إعمال الفكر والعقل البشري ، ودفع عجلة البناء بعزيمة قعساء

---

(١) المؤتمر العالمي بإستنبول للفكر الإسلامي ٢٤ـ٢٦/ ٩/ ٢٠٠٠ م
حول « النظرة القرآنية للإنسان من خلال رسائل النور »
للداعية الكبير بديع الزمان سعيد النورسي .

(٢) هو أعجوبة الثورة الإسلامية في تركيا بتعبير أ . د محمد سعيد رمضان البوطي ، ولد بتاريخ ١٢٩٣ هـ/ ١٨٧٣ م ، في قرية تابعة لقضاء هيزان في ولاية بدليس ، من أبوين كرديين ، ورسائل النور ١٣٥ رسالة ، توفي في ٢٧ رمضان ١٣٧٩ هـ .

وهمة علياء ، لا تعرف التوقف أو الفتور والكلل .

ثم التوصل إلىٰ الغاية البعيدة في الآخرة وهي الحياة الدائمة في عالم الخلود ، وتحقيق حلم السعادة عند الأسوياء ، الذين صحت عقيدتهم أو إيمانهم ، وعملوا صالح الأعمال التي تبوّئهم هذه المنزلة الرفيعة .

ولقد وجدت من خلال قراءتي لرسائل النور للداعية الكبير سعيد النورسي تصوراً شاملاً لحقيقة الإنسان في القرآن موضع العناية الإلهية ، وصبغة الله تعالىٰ الحكيمة ، بما يشمل تكوين الإنسان ، وبناء عقيدته ، وتوظيفه الفطري لعبادة الله سبحانه بالتكليف وتحمل أمانته ، وتقرير الحرية والاختيار له ضمن إطار المشيئة الإلهية الشاملة .

خطة البحث :

- تكوين الإنسان .
- كونه غرسة الإيمان .
- مظاهر صبغة الله فيه .
- تكريمه وتسخير الكون له .
- تكليفه وإعداده المادي والمعنوي .
- توجيهه لتحقيق الهدف من إيجاده أو إعداده للحياة الأبدية .
- مخاطبة جميع الناس .
- هل حقق الإنسان رسالته في الحياة ؟

● **تكوين الإنسان :**

الداعية المصلح النورسي شديد الإخلاص لربه ودينه ، يتفاعل مع الناس والأحداث والوقائع ، وأحوال الأمة ، فيسره سرورهم واستقامتهم وعزتهم ، ويؤلمه قلقهم واضطرابهم وانحرافهم ، لذا عني بالإنسان وقضيته وحاضره ومستقبله عناية كبرىٰ ، وتأمل تأملاً عميقاً بحقيقة الإنسان من خلال ثقافته القرآنية ومعرفته بشرائع دينه وآدابه .

وتحدث عن الإنسان في رسائل النور أو الشعاعات في موضوعات مختلفة . فآلمه ما آلت إليه الثقافة الغربية وريثة الحضارة الرومانية المادية ، ولمس آفاتها ونقائصها ومقتل الداء فيها ، بقيامها علىٰ النزعة المادية الطاغية ، والفردية القاتلة ، والتصور بأن الإنسان مجرد آلة أو مادة ، لا يهمه إلا إرواء مطالبه المادية وشهواته الذاتية ، وأهوائه المسيطرة ، مع قطع الصلة بالروحانيات والمعنويات والنزعة الدينية الفطرية التي هي كائنة بالفطرة في كل نفس إنسانية . ولم تقتصر مفاهيم تلك الثقافة علىٰ أهلها ، وإنما انتشرت في العالم الإسلامي وغيره بسبب قوة الغرب ، وتراكض الضعفاء والمنهزمين لتقليدها في كل ما هبَّ ودب . وتسللت هذه النزعة المادية تدريجاً إلىٰ بلاد الشرق الإسلامي ، فأصبح بعض المسلمين مشغولين فقط بإرواء رغائبهم المادية .

لقد أدرك النورسي بثاقب نظره تكامل الحقيقة الإنسانية الجامعة بين الاعتبارات المادية والمعنوية ، وبين متطلبات الجسد والروح ، ففي قرارة كل إنسان ظمأ إلىٰ الدين ، وإشباع عواطفه ومشاعره ، وحاجته إلىٰ الذات الإلهية وإحساسه بالضعف أمام الحق جل جلاله .

وهذه الحقيقة القرآنية لها ارتباط وثيق بالإيمان وأصوله ، وأبعاده

وآفاقه ، بل هي جسر لبناء عالم الدنيا والآخرة ، ومعبر للربط المحكم بين آيات الكون ودلالتها العقدية في غرس شجرة الإيمان في النفس البشرية ، وتحقيق المطامح الذاتية والاجتماعية ، القائمة علىٰ الطبيعة الإنسانية الجسدية والروحية ، والمتفاعلة علىٰ الدوام مع استعدادات الإنسان الفطرية وسجاياه السامية ، ومشاعر المروءة والمحبة والأخوة الإنسانية لديه .

وقيمة الإنسان الفعلية تبدو في هذا التكامل الجسدي (أو المادي) والروحاني (أو المعنوي) بل إن إنسانيته لا تبرز ولا تسمو إلا بالروح ، لا بالجسد وحده . ولا يتميز الإنسان إلا بمعانيه وقيمه . ودينُه وهو الإسلام منبع الفضائل كلها ، ومجمع المحاسن برمتها ، ومن أخصها الرقة والرحمة ، والشفقة والغيرة ، والعقل والوعي[1] . وقال أيضاً عن كمال الإنسان ورقيه : « وما دام كمال الخالق الذي أوجد الكون في الكمال هو ثابت ومحقق ، وما دام كمال الإنسان الذي هو أفضل ثمرة للكون ، وخليفة الله في الأرض ، وأكرم مصنوع وأحب مخلوق للخالق سبحانه وتعالىٰ ، حقيقة ثابتة أيضاً »[2] .

إن تكوين الإنسان المادي والمعنوي له دلالته في تحقيق رسالة الإنسان في الحياة ، وفي بناء العقيدة ، وفي إدراك متطلبات المستقبل الأخروي . وكل بُعْد عن أصالة هذا التكوين مرض عضال ، وخطر علىٰ الإنسان نفسه ، ولا يهدأ الإنسان وتطمئن نفسه ويشعر بوجوده

---

(١) انظر الشعاعات من كليات رسائل النور ص ٨٠ ، ٢٧٨ وما بعدها ، ٦٧٣ ، طبع شركة النسل للطباعة ، الطبعة الأولىٰ .

(٢) المرجع السابق : ص ١٩٤ ومعنىٰ الخلافة عن الله في الأرض أنه مأذون بالتصرف في مناحيها ومعطياتها ، وليس خليفة حقيقياً . وعلى كل حال ينبغي الابتعاد عن هذا التعبير ، لأن الخليفة وهو الإنسان ليس فيه صفات المستخلِف وهو الله تعالىٰ .

الحقيقي الآمن إلا في مظلة العقيدة الجامعة بين معاني الإحساس بالحاضر ، والتطلع للمستقبل الهانئ السعيد ، بل إن الممارسة الفعلية والتفاعل مع العقيدة هو محور المصداقية ، وأساس الثقة والارتياح لجدوىٰ الحياة وغاية الإنسان وتحقيق حلمه في الخلود الأبدي ، لأن طعم الحياة الدنيا موقوت وقليل ، ومذاق الآخرة خالد وغير محدود ، قال الله تعالىٰ : ﴿ بَلْ تُؤْثِرُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ۝١٦ وَٱلْءَاخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ ﴾ [الأعلىٰ : ١٦-١٧] .

● كون الإنسان غرسة الإيمان :

الإنسان في تقدير العالم الرباني ولا سيما الإمام النورسي رحمه الله ، بما توافر لديه من أعجوبة الخَلْق والإحكام ، والاكتمال والانسجام ، والحواس والمشاعر ، والعقل والإدراك ، يدل دلالة قاطعة بهذا التكوين البديع والتعقيد والتركيب العجيب ، علىٰ وجود الإله الخالق القادر ، العزيز المهيمن ، الصانع المبدع ، فهو غرسة الإيمان القوية الدالة علىٰ الله تعالىٰ . وهذا ما عبر عنه النورسي في مناسبات كثيرة من رسائله ، فقال : زبدة الكلام :

مثلما تتوجه الثمرة إلىٰ مالك شجرتها من حيث كونها مفيدة ، وترنو إلىٰ جميع أجهزة تلك الشجرة وأغصانها وماهيتها من حيث نواها ، وتنظر إلىٰ جميع ثمار تلك الشجرة من حيث سكّتها المضروبة علىٰ وجهها والموجودة في مثيلاتها ، فتقول جميعاً : « نحن علىٰ نمط واحد ، صَدَرنا من يد واحدة ، ونحن ملك لمالك واحد ، فالذي خلق واحدة منا هو خالق جميعنا بلا شك » .

كذلك الأمر في الكائن الحي الذي هو في نهايات دائرة الكثرة ،

ولا سيما الإنسان ، وبخاصة من حيث العلامات الفارقة الموجودة علىٰ وجهه ، ومن حيث ما في قلبه من فهرس ، ومن حيث ما في ماهيته من نتائج ، تتوجه كلها إلىٰ الذي يمسك السموات والأرض بربوبيته الجليلة ، وتشهد علىٰ وحدانيته جلَّ وعلا[١] .

وقال النورسي في موطن آخر من رسائله :

نعم ، فما من نوع من أنواع الصخور التي في الجبال ، ولا قسم من أقسام المواد التي هي علاجات لمختلف الأمراض والعاهات ، ولا جنس من أجناس المعادن المتنوعة جداً ، والتي تلزم الأحياء ولا سيما الإنسان ، ولا صنف من أصناف النباتات المزيِّنة بأزهارها الجبال ، وبأثمارها القفار ، إلا وتشهد بداهة علىٰ وجوب وجود صانع ذي قدرة غير متناهية ، وحكمة غير متناهية ، ورحمة غير متناهية ، وكرم غير متناه ؛ بما فيها من الحِكَم والانتظام وحسْن الخلقة والفوائد ، مما لا يمكن نسبتها إلىٰ المصادفة[٢] .

وفي معنىٰ هذه الكلمة المشرقة قال أيضاً معبراً عن خطاب النباتات لله عز وجل بلسان الحال : كما أن النباتات والأشجار تعرفك ـ أي يا الله ـ وتعلم صفاتك القدسية وأسماءك الحسنىٰ ، فليس في الأحياء المالكة للروح كالإنسان والحيوانات من فرد لا يشهد علىٰ وجوب وجودك ، وعلىٰ تحقق صفاتك ، بأعضاء جسمه الداخلية منها والخارجية ، لأن هذه الصنعة الدقيقة ببصيرة ، والحكمة اللطيفة بشعور ، والموازنة التامة بتدبير ، لا يمكن أن تتدخل فيها القوة العمياء ، ولا الطبيعة الصماء ، ولا المصادفة العشواء ، فلا يمكن أن

---

(١) المرجع السابق : ص ٢٧ .

(٢) المرجع السابق : ص ٦٥ .

تكون هذه الأمور من أعمالها[١] . وهذا ما عبر عنه الأقدمون :

وفي كل شيء له آية تدل على أنه واحد

ويمكن تلخيص هذه الكلمات وأمثالها بأن الإنسان وغيره من المخلوقات دليل على وجود الخالق ، وليس هناك أي قوة في العالم تخلق شيئاً كخلق الله ، وكل ذلك مستمد معناه من القرآن العظيم ، قال الله تعالىٰ : ﴿ أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لَّا يَخْلُقُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴾ [النحل : ١٧] ، وقال سبحانه : ﴿ أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ [الأعراف : ٥٤] ، ﴿ هَٰذَا خَلْقُ ٱللَّهِ فَأَرُونِي مَاذَا خَلَقَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦ ﴾ [لقمان : ١١] ، ﴿ صِبْغَةَ ٱللَّهِ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ صِبْغَةً وَنَحْنُ لَهُۥ عَٰبِدُونَ ﴾ [البقرة : ١٣٨] .

أي إن دليل الخلق والإيجاد : هو الدليل الوحيد القاطع الذي أورده القرآن لإثبات وجود الخالق . ويتحدىٰ الله تعالىٰ بالخلق أي موجود آخر يقدر علىٰ مثل خلقه ، فقال سبحانه : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَٱسْتَمِعُوا۟ لَهُۥٓ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَن يَخْلُقُوا۟ ذُبَابًا وَلَوِ ٱجْتَمَعُوا۟ لَهُۥ وَإِن يَسْلُبْهُمُ ٱلذُّبَابُ شَيْـًٔا لَّا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ ضَعُفَ ٱلطَّالِبُ وَٱلْمَطْلُوبُ ﴾ [الحج : ٧٣] .

● مظاهر صبغة الله في الإنسان :

الإنسان منحة الخالق ، وهبة الله وعطاؤه ، ومستودع أسراره ، وفيه شيء من صفات الله تعالىٰ ، وإن كانت محدودة مؤقتة ، وأما صفات الله فهي غير محدودة ولا متناهية ، وسرمدية دائمة .

ومن هذه الصفات : الحياة ، والإرادة ، والعلم ، والقدرة ،

---

(١) المرجع نفسه : ص ٦٠ .

والتدبير ، والسمع والبصر ، والجمال ، وغيرها من المعاني ؛ لأن الإنسان وجد من روح الله وكلمته التكوينية وأمره المعبر عنه بقوله سبحانه : ﴿ إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴾ [يس : ٨٢] .

واقتضت صبغة الله في الإنسان توافر معانٍ وخواص كثيرة فيه ، لاحظها النورسي رحمه الله وهي ما يأتي :

أ ـ إنه مظهر لتجليات أسماء الله الحسنىٰ فيه :

قال النورسي في رسائل النور : « وكذا في الإنسان نقوش الأسماء الحسنىٰ وتجلياتها ، فهو بهذه النقوش والتجليات يشهد علىٰ تلك المعاني المقدسة »[١] . وقال في موضع آخر يوضح بقاء هذه التجليات في عالم الآخرة : « ثم إن الأسماء الحسنىٰ المتجلية علىٰ الإنسان تشير إلىٰ أن الذي هو مرآة عاكسة لتجليات تلك الأسماء في هذه الحياة القصيرة الفانية ، سيحظىٰ بتجلياتها الأبدية في عالم البقاء »[٢] .

وكذلك أسماء الله العديدة ذات دلالات عظيمة ، فهو سبحانه الجليل والجميل والقدير والمهيمن والرحيم واللطيف . . . إلخ .

ب ـ قوة ذاكرة الإنسان وحافظته :

الذاكرة الإنسانية عجيبة ، تستكن فيها ذكريات الماضي ، وتاريخ الأمم والشعوب ، وأحداث الحياة البشرية ، ودقائق العلوم وآفاقها ، وغير ذلك من أنواع اللطائف والمعارف والإشارات والشعاعات ، فلا تنساها وتستحضرها بما يسمىٰ في علم النفس « تداعي الأفكار » وكأن

---

(١) المرجع نفسه : ص ١٢ .

(٢) المرجع ذاته : ص ٦٢ .

تلك المعلومات المختزلة تتفجر في الذاكرة الحافظة في أدق المناسبات . قال النورسي : « ثم إننا نرىٰ أن وظائف المخلوقات تُنْسَج علىٰ منوال الحكمة ، وتُكال بميزان العدل ، وهما من الدقة والحساسية لا يتصور الإنسان أفضل منهما . فترىٰ الحكمة الأزلية قد وهبت للإنسان قوة حافظة ـ كحبة الخردل حجماً ـ وكتبت فيها تفاصيل حياته وما يمسه من أحداث لا تعد ، وكأنها مكتبة وثائقية صغيرة جداً ، ووضعتها في زاوية من دماغه ، لتذكّره دوماً بيوم الحساب ، يوم تنشر ما فيها من صحائف الأعمال » ، وقال أيضاً : « ثم إننا نرىٰ (حفيظة) أي حافظة مهيبة محيطة بادية للعيان ، تحكم علىٰ كل شيء حي ، وتهيمن علىٰ كل حادث ، تحفظ صوره الكثيرة ، وتسجل أعمال وظيفته الفطرية ، تدوّن تسبيحاته التي يؤديها ـ بلسان الحال ـ تجاه الأسماء الحسنىٰ . . تدوِّنها في لوحات مثالية ، في بُذيراته ونويَّاته ، في قواه الحافظة ، وهي نماذج مصغرة للوح المحفوظ ، ولا سيما في حافظة الإنسان التي هي مكتبة عظمىٰ مصغرة جداً موضوعة في دماغه »[١] .

وأضاف في موضع آخر : « فمثلاً ، إن خلق القوة الحافظة والخيالية والمفكرة وأمثالها من المكائن العجيبة ، في موضع صغير في دماغ الإنسان ، لا يتجاوز حجم جوزة واحدة ، وجعل القوة الحافظة بمثابة مكتبة ضخمة ، يبين أنه سبحانه وتعالىٰ يظهر نفسه بتجليات العلم الأزلي بياناً واضحاً كالشمس في رائعة النهار »[٢] .

---

(١) ص ٢١٥ ، ٢٦٤ ، ٢٦٩ .

(٢) ص ٦٨١ .

وهذا كله من صفات الله سبحانه ، فقال :

﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا﴾ [مريم : ٦٤] .

ج ـ كون الإنسان مظهر الجمال الإلهي :

الإنسان وجميع ما في الكون يعبر عن جلال وجمال الله الصانع المبدع ، ويعرف به وبموازينه الدقيقة جداً ، ولا سيما في إبداع خلق السموات والأرض ، ومنها جمال النباتات والأزهار ، قال النورسي : « وترىٰ العدالة المطلقة تضع كل عضو من الكائن الحي في موضعه اللائق به ، وتنسقه بموازين دقيقة حساسة ، ابتداء من مكروب صغير إلىٰ كركدن ضخم ، ومن نَحْل ضعيف إلىٰ نسر مهيب ، ومن زهرة لطيفة إلىٰ ربيع زاهٍ بملايين من الأزهار . . وتراها تمنح كل عضو تناسقاً لا عبث فيه ، وموازنة لا نقص فيها ، وانتظاماً لا ترىٰ فيه إلا الإبداع ، كل ذلك ضمن جمال زاهر وحسن باهر ، حتىٰ تغدو المخلوقات نماذج مجسمة للإبداع والإتقان والجمال »[١] .

وقال في مكان آخر من رسائله : « نعم ، إن هذا الكون مرآة تعكس الجمال السرمدي والحسن غير المحدود ، بل من تجلياته سبحانه ، وما في الكون من جمال وحسن آتٍ من ذلك الحسن السرمدي ، ويتجمل بالانتساب إليه فيرقىٰ ويعلو . . إذ لولا ذلك الانتساب ، لتحول الكون إلىٰ مأتم موحش وأخلاط ودمار وفوضىٰ ضارب أطنابه »[٢] .

وهذا ما عبر عنه النَّبي ﷺ بقوله : « إن الله جميل يحب الجمال »[٣] .

---

(١) ص ٢٦٤ .

(٢) ص ٦٨١ .

(٣) أخرجه مسلم والترمذي عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه .

د ـ الإنسان ثمرة التوحيد :

الله واحد لا شريك له في ذاته ، وصفاته ، وأفعاله ، فهو المتفرد بالألوهية والربوبية ، ولا تشابه بينه وبين المخلوقات الحادثة : ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴾ [الشورىٰ : ١١] .

وينعكس ذلك علىٰ الإنسان في ذاته وسجاياه وخصائصه ، قال النورسي في رسائله ، علماً بأنني لم أجد عند جميع المتكلمين في العقيدة مثل كلامه في ذلك : « نعم ، إن الإنسان بسرّ التوحيد ، صاحب كمال عظيم بين جميع المخلوقات ، وهو أثمن ثمرات الكون ، وألطف المخلوقات وأكملها ، وأسعد ذوي الحياة ، ومخاطب رب العالمين ، وأهل ليكون خليله ومحبوبه .

حتىٰ إن جميع المزايا الإنسانية ، وجميع مقاصد الإنسان العليا مرتبطة بالتوحيد ، وتتحقق بسر التوحيد ، فلولا التوحيد لأصبح الإنسان أشقىٰ المخلوقات ، وأدنىٰ الموجودات ، وأضعف الحيوانات ، وأشد ذوي المشاعر حزناً وأكثرهم عذاباً وألماً . . . »[1] إلخ .

ثم ضرب النورسي أمثلة لذلك من العقل ، والشفقة والحنان ، والمحبة وجميع مطالبه الدقيقة ومقاصده الكلية التي لا تتحقق بغير سر التوحيد .

وهذا المعنىٰ مستمد من قول الله تعالىٰ في بيان تحقيق مقاصد الإنسان بسبب التوحيد : ﴿ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا رَّجُلًا فِيهِ شُرَكَآءُ مُتَشَٰكِسُونَ وَرَجُلًا سَلَمًا لِّرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا ۚ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [الزمر : ٢٩] هذا

---

(١) ص ١٨ـ١٩ .

مثل للمشرك والموحد ، فمن كان مشركاً يتنازعه الشركاء ، ومن كان واحداً لا نزاع فيه أو معه ، والله واحد لا نزاع بين عباده المؤمنين به ، ويرعاهم بفضله ، علىٰ عكس الشيء المشترك ، يثور النزاع بين الشركاء فيه .

هـ ـ حب الإنسان للبقاء :

الإنسان بطبعه أو فطرته يحب الحياة والبقاء في الدنيا ، ويكره الموت والزوال عن عالم الدنيا ، لما فيها من إغراءات ولذائذ وشهوات ، ولتخوفه من مخاطر الفناء والحساب ، وجهله بما عند الله تعالىٰ من ألطاف المكارم والعطايا ما لا يوازيه شيء في الدنيا ، وكذلك يحب الإنسان الخلود والبقاء في الآخرة .

قال النورسي رحمه الله في رسائله : « فمثلاً ، في الإنسان رغبة ملحة شديدة للبقاء ، فلا يحقق له هذه الرغبة إلا من يتصرف في الكون كله بسهولة مطلقة ، يفتح باب الآخرة بعد أن يسد باب دار الدنيا ، كفتح باب منزل وغلق آخر . ففي الإنسان ألوف من الرغبات الإيجابية والسلبية ، أمثال هذه الرغبة ، رغبة البقاء ، تلك الرغبات ممتدة إلىٰ جهة الأبد والخلود ومنتشرة في أقطار العالم كله »[1] .

وهذا لأن الله تعالىٰ هو الصانع الفاطر الباقي ، فلا حزن علىٰ زوال المصنوع لبقاء مدار المحبة في صانعه كما قال النورسي[2] ، قال الله سبحانه : ﴿ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ . . ﴾ [البقرة : ٢٥٦] ، وقال : ﴿ كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ﴿٢٦﴾ وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ ﴾ [الرحمن : ٢٦ـ٢٧] .

---

(١) ص ١٩ .

(٢) ص ٩٦ـ٩٧ .

وقال النورسي أيضاً عن الإنسان : « وهو أشد شوقاً إلىٰ البقاء ، وأكثر حاجة إلىٰ الخلود ، بل هو الأجدر به . . وهو الذي يتوسل لأجل البقاء والخلود بأدعية غير محدودة ، فلو أعطي له ما في الدنيا من متع ، لما شَفَت غليله للخلود . . وهو الذي يحب الذي أنعم عليه حباً لحد العبادة ، ويحببه للآخرين ، وهو المحبوب أيضاً . . . »[١] . « وكما أنه يحب البقاء في الدنيا الفانية ، فهو يتوق إلىٰ بقائه في الدار الباقية »[٢] .

ومسايرة لحب الإنسان في البقاء والخلود الأخروي ، دعا جميع الأنبياء والرسل عليهم الصلاة والسلام إلىٰ الحياة الباقية والسعادة الأبدية ، وبشروا البشرية بها ، وأثبتوا صدق دعواهم بما لا يحدُّ من المعجزات والدلائل القاطعة . قال النورسي : « فهل من الممكن لهذا الخالق الجميل ، الصانع الجليل ، الله ذي الكمال ، ألا يجعل دار ثواب وجزاء ؟ وألاّ يقيم الحشر والنشر لنوع الإنسان الذي يقابل بالشعور والعقل في هذه الدنيا الفانية جميع مقاصد ذلك الخالق الكريم ، والذي يحب ذلك الخالق ، ويحببه بجميع استعداداته ، والذي يعرفه ويعرّفه ، ويتوسل إليه بأدعية لا حد لها لبلوغ السعادة الأبدية والبقاء الأخروي . . »[٣] .

و ـ سجايا الإنسان من خصائص صفات الله :

الإنسان مدين بطبائعه وسجاياه الحميدة وخصاله الفريدة ، وتحقيق حاجاته لله وحده الموحد الكامل في ذاته وصفاته ، لأنه صاحب

---

(١) ص ٢٧٣ .
(٢) ص ٢٧٧ .
(٣) ص ٦٣٩ .

الجمال الإلهي ، والكمال الرباني اللذين يظهران في التوحيد وفي الوحدانية ، فالإنسان إذا أحسن فعل شيء وإتقانه ، فلأن الله هو المتقن ، وإذا أعطي شيئاً فلأن الله تعالىٰ هو المعطي وهو واسع السخاء والجود ، وإذا صبر فبتصبير الله ، وإذا اطمأن فبإرضاء الله : ﴿ أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ ﴾ [الرعد : ٢٨] وإذا منع شيئاً عمن لا يستحق فلأن الله هو المانع ، وهكذا جميع أسماء الله الحسنىٰ تنعكس آثارها علىٰ الإنسان في حالته المعتدلة ومزاجه الصحيح ، قال النورسي رحمه الله : « إن مقام الإنسان الراقي وتفوقه علىٰ سائر الأحياء وامتيازه عليها ، إنما هو لسجاياه السامية ، ولاستعداداته الفطرية الجامعة ، ولعبوديته الكلية ، ولسعة دوائر وجوده . . هذا الإنسان يكسب سجايا المروءة والمحبة والأخوة والإنسانية علىٰ أساس حاضره الضيق ، وتتحدد عنده علىٰ وفق مقاييسه وموازينه المحدودة . . »[1] .

ز ـ تميز الإنسان عن غيره من المخلوقات :

ميّز الله تعالىٰ الإنسان وفضله علىٰ أكثر بقية المخلوقات الكونية ، الحية والجامدة ، كما جاء في قوله تعالىٰ : ﴿ ۞ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِيٓ ءَادَمَ وَحَمَلْنَٰهُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا ﴾ [الإسراء : ٧٠] .

وقد أوضح النورسي رحمه الله هذه الظاهرة ، فقال في أكثر من موضع من رسائله : « كذلك الأمر في الكائن الحي الذي هو في نهايات دائرة الكثرة ، ولا سيما الإنسان ، وبخاصة من حيث العلامات

(١) ص ٢٧٨ـ٢٧٩ .

الفارقة الموجودة علىٰ وجهه ، ومن حيث ما في قلبه من فهرس ، ومن حيث ما في ماهيته من نتائج ، تتوجه كلها إلىٰ الذي يمسك السموات والأرض بربوبيته الجليلة ، وتشهد علىٰ وحدانيته جل وعلا »[١] .

وفي مناسبة أخرىٰ قال النورسي : « وعلىٰ وجه الإنسان تشاهد علامة وحدانية يبيّنها وجود العلامات الفارقة في وجه كل إنسان ، بحيث تميّزه عن جميع الوجوه الأخرىٰ في الأرض كافة »[٢] .

ح ـ الإنسان عالم مصغر عن الكون :

يرىٰ النورسي أن الإنسان نموذج مصغر لخريطة الكون ، فهو كون مصغر ، وكل إنسان عالم أصغر ، لما اشتمل عليه من تركيب دقيق وعظيم وشامل ، فهو بذرة معنوية لشجرة الكون ، ومرآة رقيقة لأكثر السمات الإلهية ، فقال : والمؤمن لو نظر إلىٰ الكائنات ، وأبصرها ببصر الإيمان يجدها علىٰ صورة إنسان كبير ، متسربل بسبعين ألف حلَّة قشيبة مخيطة بالرحمات والخيرات والحِكَم ، بعضها فوق بعض ، كأنها حورية من الجنة ، لبست سبعين حلَّة من حللها ، ويجدها باسمة دوماً بالرحمة ضاحكة مستبشرة ، ويشاهد نوع الإنسان الذي فيه كوناً مصغراً ، وكل إنسان عالماً أصغر . وأضاف قائلاً :

إن الذرة والجزء والجزيء والنواة والإنسان ليست بأقل صنعة وجزالة من النجم ، والكل ، والكلي ، والشجر ، والعالم . الإنسان الذي هو كون صغير ليس بأقل إبداعاً من الكون العظيم ، من حيث إنه في أحسن تقويم ، ويملك أجهزة خارقة جامعة مهيأة للقيام بألوف الوظائف العجيبة .

---

(١) ص ٢٧ .
(٢) ص ٣٩ .

والله الذي جعل الإنسان أشبه ببذرة معنوية للعالم ، وثمرة جامعة له ، ومظهر لجميع أسمائه الإلهية ، ومرآة لها ، ومرتبط بالكائنات كلها وخليفة للأرض[١] .

ط ـ الإنسان عاجز ضعيف فقير محتاج لربه :

الإنسان ضعيف أمام قدرة الله المطلقة غير المحدودة ، فيحس بأعماق نفسه أنه محتاج إلىٰ ربه ، فقير لإمدادات خالقه ، فلا يستغني عنه لحظة واحدة ، في أي حركة وسكنة ، أو في صحة أو عافية ومرض ، أو في غنىٰ وفقر أو في رزق وعدم ، أو في منصب وجاه وذل وانكسار أو في غير ذلك من الأحوال ، بسبب الحاجة إلىٰ القوة والمدد والتوفيق الإلهي ، قال الله تعالىٰ : ﴿ يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُخَفِّفَ عَنكُمْ ۚ وَخُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ ضَعِيفًا ﴾ [النساء : ٢٨] . وهذا ما عبَّر عنه النورسي رحمه الله في مناسبات كثيرة ، فقال في رسائله : « وكذا الإنسان بضعفه وعجزه وفقره وجهله يؤدي وظيفة المرآة ـ بشكل آخر ـ إذ يشهد بها علىٰ صفات من يرحم ضعفه وفقره ، ومن يمد عجزه ، أي يشهد علىٰ قدرته جل وعلا ، وعلىٰ علمه وعلىٰ إرادته ، وهكذا علىٰ سائر صفاته الجليلة »[٢] ، وقال أيضاً : « يجد الإنسان بانتسابه إلىٰ السلطان ذي الجلال ـ بالإيمان والعبودية ـ مستنداً قوياً ، ومرتكزاً عظيماً يحتمي إليه في دفع أعدائه كافة ، ويجد فيه كذلك مدار استمداد يستغيث به لقضاء حاجاته وتلبيته رغباته وآماله كافة »[٣] .

---

(١) ص ٢٧ ، ٦٤٥ ، ٧٠٢ .

(٢) ص ١٢ ، وانظر أيضاً : ١٩ ، ٢٣ ، ٦٣ ، ٧٥ ، ١٩٦ .

(٣) ص ٢٦٠ .

ويقول أيضاً عن الإنسان : « وهو الأكثر فاقة وعجزاً من بين أحياء الكون ، وهو الكائن الحي العاجز الفقير بلا حدود ، مع أن له أعداء ومؤذيات بلا عدّ ، ومقاصد وآلاماً بلا حدّ . . »[١] .

ي ـ محبة الإنسان للملائكة :

المؤمن لا يكتمل إيمانه إلا بالإيمان بالملائكة الكرام ، وعليه أن يحبهم ، لأنهم رسل الله ، المفوضون بأمره ، بشؤون العباد ، ومنهم الأربعة العظام : جبرائيل وميكائيل وإسرافيل وعزرائيل .

فجبرائيل أمين الوحي الإلهي الذي هو نظام الحق لحياة الإنسان ، وميكائيل موكل بإنزال المطر ، وإسرافيل ينفخ الصور لموت الخلائق قاطبة ، وللنشر من القبور ، وعزرائيل الذي يخاف منه الإنسان ، لتوكيله بقبض الأرواح ، يكون للإيمان به ثمرة ، وهو حفظ الإنسان من العبث والضياع والفناء قبل مجيء الأجل الحتمي .

وللإيمان بالملائكة الموكلين بتسجيل أعمال الإنسان بأمانة فائدة مهمة جداً هي حفظ أعمال الإنسان من الضياع[٢] ، فهو المحقق لدخول الجنة بأمر الله ، وهم الذين يصورون أعمال الإنسان في مناظر خالدة ، حتىٰ إن وجود ملائكة الشمال مفيد أيضاً ، لإثبات ظاهرة العدل بين الناس قاطبة .

ك ـ تدوين أفعال الإنسان :

إن الصانع الجليل يدوّن أعمال الإنسان صغيرها وكبيرها ولا يضيع منها ذرة واحدة ، كما قال سبحانه : ﴿وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ لِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ فَلَا

---

(١) ص ٢٧٣ .

(٢) رسائل النور : ص ٣١٨ـ٣١٩ .

نُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَىٰ بِنَا حَاسِبِينَ﴾ [الأنبياء : ٤٧] . وهذا ما أدركه النورسي بدقة قائلاً : « وهل يمكن لهذا الحاكم الحكيم ، العليم الرحيم ، ألا يسجل أعمال الإنسان التي تتعلق بالكائنات ؟ وهل يمكن ألا يدوّن أفعاله للثواب والعقاب ، ولا يكتب سيئاته وحسناته في ألواح القدر ؟ حاشا لله وكلا بعدد حروف ما كتب في اللوح المحفوظ المقدر »(١) .

● تكريم الإنسان وتسخير الكون له :

كرَّم الله الإنسان أيما تكريم ، وجعله أكرم مخلوق ، وأفضل كائن حي ، وزوَّده بطاقات هائلة لبناء حياته ، وخلقه في أحسن تقويم ، وسخَّر له جميع ما في السموات والأرض ، من أجل عيش كريم ، وحياة سعيدة ، وهذا ما دلت عليه النصوص القرآنية الكثيرة ، مثل قوله تعالىٰ : ﴿ ۞ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِىٓ ءَادَمَ وَحَمَلْنَٰهُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا﴾ [الإسراء : ٧٠] ، وقال سبحانه : ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِىٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾ [التين : ٤] ، وقال عز وجل في تسخير المواد الكونية والذخائر الأرضية للإنسان : ﴿أَلَمْ تَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ [لقمان : ٢٠] ، ﴿ وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ ﴾ [الجاثية : ١٣] ، ﴿ هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا﴾ [البقرة : ٢٩] أي : جعل جميع ذخائر الأرض وثرواتها من معادن وقدرة علىٰ الإنبات وغيرها مختصة بالناس علىٰ جهة الانتفاع والاستثمار والاستنباط .

وردد النورسي رحمه الله هذه المعاني القرآنية كلها في رسائله ،

---

(١) المرجع السابق : ص ٤٦ ، ٢٩٩ .

فقال عن كون الإنسان أفضل مخلوق : « فما دام الأمر هكذا ، فإن دعاءً للسعادة الأخروية والبقاء والخلود ـ وهو أفضل دعاء وأعمه ، ويمس جميع الكائنات ويرتبط بجميع الأسماء الحسنىٰ ، وبجميع الصفات الجليلة ـ هذا الدعاء يسأله أفضل مخلوق ـ وهو الإنسان ـ ويضمه ضمن أدعيته أعظم عبد وأحبه إلىٰ الله ، ذلك الرسول الأعظم ﷺ »[١] .

وقال عن كون الإنسان مخلوقاً كاملاً في خلقه وتكوينه وجماله : « لأن كل ذي شعور يعلم أن الله سبحانه قد خلق هذا الإنسان في أحسن تقويم ، وربّاه أحسن تربية ، وزوّده من الأجهزة والأعضاء ـ كالعقل والقلب ـ ما يتطلع به إلىٰ السعادة الأبدية ويسوقه نحوها . . . »[٢] .

وقال عن ادخار خيرات الأرض للإنسان : « وما دام لابن آدم ـ الذي له هذه الماهية والمزايا خلقاً وطبعاً ، وله حاجات لا تُحدُّ مع ضعفه الشديد ، وآلام لا تُعدُّ مع عجزه الكامل ـ ربٌّ قدير ، له من القدرة والرأفة المطلقة ما يجعل هذه الأرض الهائلة العظيمة مخزناً عظيماً لأنواع المعادن التي يحتاجها الإنسان ، ومستودعاً لأنواع الأطعمة الضرورية له ، وحانوتاً للأموال المختلفة التي يرغبها ، وأنه سبحانه ينظر إليه بعين العناية والرأفة ، ويربيه ، ويزوّده بما يريد »[٣] .

وحول أهمية الإنسان عبَّر النورسي بتعبير موجز عن مدىٰ تلك

---

(١) ص ٢٦٥ ، وانظر أيضاً : ص ١٩٤ ، ٢٧٩ ، ٧٠٢ .
(٢) ص ٢٦٨ ، وانظر أيضاً : ص ٧٠٢ .
(٣) ص ٣٣٦ ، وانظر أيضاً : ص ٦٣٥ ، ٧٠٢ .

الأهمية ، فقال : « وهكذا فقد منح سبحانه جامعية من جهات كثيرة جداً ، ووهب له من الاستعداد ما يجعله مرآة كاملة لأحديته وصمدانيته ، ويمكّنه من أن يلبي بعبودية كليّة واسعة ، ربوبيةً كلية مقدسة »[١] . وقال أيضاً : « وإن إيجاد حياض رحمة كهذه للإنسان القادم ضيفاً إلىٰ مضيف الدُّنيا هذه ، وتسخيرها لسيره وسياحته ولسفينته ولمنافعه . . . يشير إلىٰ أن الذي يكرم ضيوفه في ليلة واحدة ، في دار استراحة شيدها لهم علىٰ طريق سفرهم ، بهذا الكرم العظيم من هدايا البحار وعطاياها . . لا بد أنه قد أحضر في مقر سلطنته الأبدية بحار رحمة أبدية واسعة ، بحيث إن المشهودة منها هنا ليست إلا نماذج فانية وصغيرة أمام تلك الأبدية »[٢] .

● تكليف الإنسان وإعداده المادي والمعنوي :

كان من عظيم التكليف الإلهي للإنسان تكليفه بالتكاليف الشرعية ، المعبر عنها بكلمة « الأمانة » في قوله تعالىٰ : ﴿ إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ﴾ [الأحزاب : ٧٢] لأن من المعلوم أن التكليف ومناطه العقل الإنساني والطاقة الفكرية دليل علىٰ أهمية الإنسان ، واللطف به ، وجعله محلاً للمسؤولية أو المساءلة عن جميع أقواله وأفعاله ، فتعطيل المسؤولية وترك الإنسان من غير تكليف يدل علىٰ إهماله وعدم المبالاة به ، وتركه يهيم في حياته كالحيوان في البراري .

وقد زوَّد الله تعالىٰ الإنسان بالإضافة إلىٰ تكوينه الجسدي المادي لتحمل مسؤولية التكاليف ، مفاتيح المعرفة وأدوات العلم ، وموهبة

---

(١) ص ٧٨ .

(٢) ص ٥٥ .

العقل وطاقة الفكر ، ليميز بين الخير والشر ، ويدرك حقائق الأشياء ، ويعمل علىٰ ما فيه خيره ، وتجنب كل ما فيه ضرره .

قال النورسي رحمه الله في رسائله : « فمثلاً العقل الذي هو أفضل أجهزة الإنسان وأرقاها ، إن استعمل بسر التوحيد ، فإنه يصبح مفتاحاً ثميناً بحيث يفتح الكنوز الإلهية السامية ، وألوفاً من خزائن الكون ، بينما إذا تخبط ذلك العقل في وحل الضلالة والكفر ، فإنه يصبح آلة تعذيب ووسيلة إزعاج ، بما يجمع من آلام الماضي الحزينة ومخاوف المستقبل الرهيبة .

ثم مثّل بالشفقة والحنان ، وهي ألطف سجية من سجايا الإنسان وأحلاها ، وبالمحبة التي هي ألذ شعور في الإنسان وأطيبه وأسماه ، للدلالة علىٰ قيم الإنسان وكونه يسع الكون وله سلطان علىٰ المخلوقات كلها[1] .

ثم قال مبيناً مدىٰ الإخلال بالمسؤولية الكبرىٰ وإهدار قيمة التكليف الإلهي بالإيمان والعبادة وأداء الحقوق وارتكاب الجناية العظمىٰ : « إن كفر الإنسان إنما هو تجاوز ـ أيُّ تجاوز ـ علىٰ حقوق الكائنات وأغلب المخلوقات ، مما يثير غضب السموات والأرض ، ويملأ صدور العناصر حنقاً وغيظاً علىٰ الكافرين ، حتىٰ تقوم تلك العناصر بصفع أولئك الظالمين بالطوفان وغيره ، بل حتىٰ الجحيم تغضب عليهم غضباً تكاد تتفجر من شدته ، كما هو صريح الآية الكريمة : ﴿ إِذَآ أُلْقُوا۟ فِيهَا سَمِعُوا۟ لَهَا شَهِيقًا وَهِىَ تَفُورُ ۝٧ تَكَادُ تَمَيَّزُ مِنَ ٱلْغَيْظِ ﴾ [الملك : ٧ـ٨] »[2] .

---

(١) ص ١٩ .

(٢) ص ٣١٢ .

إن الإعداد المادي والروحي للإنسان مظهر كمال ، ودليل رفعة ، وعلو شأن ، وتهيئة للدرجات العليا في الدنيا ، وفي عالم الخلود في الآخرة . ومن أخص مزايا رسائل النور للنورسي أنها تخاطب جميع لطائف الإنسان ، مبينة أن القرآن « يخاطب العقل والروح والوجدان » معاً بحيث يلقي الطمأنينة في كل منها ويغذيها ويعطيها نصيبها الوافر منه بسهولة بالغة . كذلك ينبغي أن يكون تفسير القرآن أيضاً بليغاً جداً ونافذاً إلىٰ الأعماق ، بحيث ينير العقل والقلب والروح والوجدان والنفس وغيرها من اللطائف الربانية في الإنسان ، مع إلزام صارم للشيطان وطرد لهمزاته ، وحفظ النفس من وساوسه[1] .

● توجيه الإنسان لتحقيق الهدف من إيجاده ، أو إعداده للحياة الأبدية :

الإنسان كما يفهم من كلام النورسي وسيلة وهدف ، فهو وسيلة لإعمار الكون ، وهدف أو غاية ، وهو أن يكون عابداً لله عز وجل ، ومُعَدّاً للحياة الأبدية ، أما عبادة الله عز وجل : فلأن الدنيا مزرعة الآخرة ، والغاية الكبرىٰ من وجوده وتكليفه : إنجاؤه من النار ، وظفره بالخلود في جنان الخلد والنعيم ، وطريق ذلك هو عبادة الله تعالىٰ لقوله سبحانه :

﴿ وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴾ [الذاريات : ٥٦] .

استفتح النورسي رحمه الله مقدمة رسائل النور من الشعاعات بهذه الآية ، ثم قال : « يفهم من أسرار هذه الآية الجليلة : أن حكمة

---

(١) بديع الزمان سعيد النورسي ، نظرة عامة عن حياته وآثاره ، للأستاذ إحسان قاسم الصالحي : ص ١٥١ـ١٥٢ .

مجيء الإنسان إلىٰ هذه الدنيا والغاية منه ، هي : معرفة خالق الكون سبحانه ، والإيمان به ، والقيام بعبادته ، كما أن وظيفة فطرته ، وفريضة ذمته ، هي : معرفة الله والإيمان به ، والتصديق بوجوده وبوحدانيته إذعاناً ويقيناً »[١] .

أي إن وظيفة الإنسان الفطرية ، هي : عبادة الله وتقديسه وتوحيده وتنزيهه عن مشابهة الحوادث ، بل كل حيوان يؤدي عبادته الخاصة به ، بلسان الحال أو المقال ، مسبحاً خالقه وبارئه ومعبوده ، مقدساً إياه من القصور والشرك ، حامداً شاكراً لأنعمه وآلائه[٢] .

وقال النورسي أيضاً : ولما كانت هذه الدنيا مزرعة الآخرة ، فالحقائق الصغيرة التي فيها تثمر وتتسنبل في الآخرة . وفي موضع آخر قال : وهكذا في كل موجود مخزن ، حتىٰ إن مخزن الآخرة هو دار الدنيا ، ومزرعة الجنة ومستودعها : هو عالم الإسلام ، وعالم الإنسانية الحقة ، الذي تنبعث منه الحسنات والحسن والأنوار[٣] .

وأما الإعداد للحياة فمزدوج ، فهو إعداد للحياة والروابط الاجتماعية الإنسانية في الدنيا ، من أجل التعاون علىٰ ظروف الحياة وتنمية المشاعر الإنسانية ، وإعداد أيضاً للحياة الأبدية وعالم الخلود في الآخرة ، قال النورسي رحمه الله : « الناس يحبون خالقهم محبة خالصة بفطرتهم ، وخالقهم يحبهم ويحبب نفسه إليهم بكل وسيلة ، واستعداد الإنسان وأجهزته المعنوية تتطلع إلىٰ عالم آخر باق ، وإلىٰ

---

(١) ص ١٣٥ .
(٢) ص ٦٣ .
(٣) ص ٢٨٩ ، ٦٣٥ .

حياة أخرىٰ أبدية ، وإن قلبه وشعوره ليطلبان البقاء ، ويتوقان إليه ، وإن لسانه ليتوسل إلىٰ خالقه بأدعية غير محدودة طالباً البقاء »[١] .

وفي تعليقه علىٰ آية : ﴿ حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ ﴾ [آل عمران : ١٧٣] ، قال : نعم ، حسبي من بقاء الدنيا وما فيها بقاء مالكها وصانعها وفاطرها . حسبي من بقائي : أن الله هو إلهي الباقي ، وخالقي الباقي ، وموجدي الباقي ، وفاطري الباقي ، ومالكي الباقي ، وشاهدي الباقي ، ومعبودي الباقي ، وباعثي الباقي[٢] .

وفي موضع آخر قال : « ومن هنا غدا الإنسان متمكناً من العمل للحياة الأبدية ، وهو ينظر إلىٰ فناء الدنيا ، ويعمل في الوقت نفسه لعمارة الدنيا ، وكأنه يعيش أبداً »[٣] .

وفي مقالة أخرىٰ يدمج النورسي بين الحياتين الدنيوية الاجتماعية ، والأخروية ، فيقول : « كما أن الإنسان ـ خلافاً للحيوان ـ ذو علاقة مع بيته ، فهو أيضاً ذو ارتباط وثيق في الدنيا ، ومثلما أنه مرتبط بأقاربه بروابط ووشائج ، فهو كذلك ذو نسب فطري بالجنس البشري ، وكما أنه يحب البقاء في الدنيا الفانية ، فهو يتوق إلىٰ بقائه في الدار الباقية ، وما دام جميع لذائذ الدنيا لا تشبع الخيال ، الذي هو أحد خدام الماهية الإنسانية ، فلا بد أن حقيقة الماهية الإنسانية الجامعة الشاملة جداً مرتبطة فطرةً بالخلود والبقاء »[٤] .

---

(١) ص ٦٢ .
(٢) ص ٩٧ .
(٣) ص ١٠٦ .
(٤) ص ٢٧٧ ، ٢٧٨ .

وللإيمان بالآخرة فوائد كثيرة ، من أهمها الرضا بالمصيبة ، والتفاعل بها ، وتفويض أمر تجاوزها أو حلّها إلىٰ الله تعالىٰ ، فهي بتقدير الله وإذنه ، قال الله تعالىٰ : ﴿ مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا فِيٓ أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَٰبٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَآ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴾ [الحديد : ٢٢] ، وقال سبحانه : ﴿ مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۗ وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُۥ ۚ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾ [التغابن : ١١] .

ووجود الإنسان نفسه دليل علىٰ وجود الآخرة ، بما هو مضمر في النفس البشرية من الآمال والأشواق والمطالب الروحية ، وقد علق النورسي علىٰ آية لذائذ الجنة : ﴿ وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ ٱلْأَنفُسُ وَتَلَذُّ ٱلْأَعْيُنُ ۖ وَأَنتُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴾ [الزخرف : ٧١] ، فقال : « تبين أن أكثر ما يأنس الإنسان به من اللذائذ المادية المحسوسة ـ والذي يتذوق نماذجها في الدنيا ـ سيراها ويتذوقها بصورتها اللائقة بالجنة . . . وهكذا تظهر ثمرات الإيمان بالآخرة ونتائجه : أنه مثلما تدل حقيقة معدة الإنسان وحاجاتها دلالة قاطعة علىٰ وجود الأطعمة ، فإن حقيقة الإنسان وكمالاته وحاجاته الفطرية وآماله الأبدية وحقائقه واستعداداته ، تتطلب النتائج والفوائد المذكورة للإيمان بالآخرة ، وتدل قطعاً علىٰ الآخرة ، وعلىٰ الجنة ، وعلىٰ لذائذ مادية محسوسة باقية ، وتشهد علىٰ تحققها . وإن حقيقة كمالات هذا الكون أيضاً ، وآياته التكوينية الحكيمة ، وجميع حقائقه المرتبطة بالحقائق الإنسانية ، تدل دلالة قاطعة أيضاً علىٰ وجود الآخرة وعلىٰ تحققها ، وتشهد شهادة صادقة علىٰ مجيء الحشر وانفتاح أبواب الجنة والنار »[1] .

(١) ص ٢٨٦ .

● **مخاطبة جميع الناس :**

لم يقصر القرآن الكريم خطابه العقدي والتشريعي علىٰ المسلمين فقط ، وإنما وجه الخطاب لجميع الناس ، لأن رسالة الإسلام خالدة وعامة للجنس البشري كله ، في مختلف البلاد والأزمان . والداعية النورسي إلىٰ الإيمان بالقرآن الكريم كان منهجه أيضاً موجهاً للإنسان والإنسانية ، دون تمييز بين أحد في الجنس والعنصر واللون واللغة . قال في مقدمة الخطبة الشامية المشهورة :

« إن رسائل النور التي هي تفسير حقيقي للقرآن ـ وذلك بسر إعجازه ـ إذ تثبت كما أن في الانغماس في مهاوي الضلالة جحيماً معنوياً في هذه الدنيا ، تؤكد أن في الإيمان نعيماً معنوياً في هذه الدنيا أيضاً . وهي تبرهن كذلك ، كما أن في المعاصي والفساد والمتع المحرمة آلاماً مبرحة روحية ، فإن عمل الحسنات والخصال الحميدة ، والالتزام بالحقائق الشرعية لذائذ روحية ، أشبه ما تكون بملذات الجنة ، وهكذا فإنها بذلك تنقذ أهل السفاهة وأرباب الضلال من التمادي والاستمرار ، ما دامت لهم مُسْكة من عقل ، وذلك لأن عصرنا هذا يتميز بطابعين عجيبين :

الطابع الأول : هو التعامي عن رؤية العاقبة وترجيح درهم من اللذة الماثلة علىٰ كثير من اللذات الآتية . . وما ذلك إلا بسبب طغيان المظاهر المادية علىٰ عقل الإنسان وفكره . والسبيل الوحيد لإنقاذ أهل السفاهة من الناس من سفههم هو : إظهار الألم المبرح في تلك اللذات عينها والغالبة علىٰ حسهم .

الطابع الثاني : إن الضلال المترتب علىٰ الإلحاد والعلوم الطبيعية

والتمرد المتولد عن الفكر العنادي في الماضي ليعتبران من الضآلة بحيث لا تذكر ، إذا ما قيس بما عليه الوضع في وقتنا الراهن[١] .

● هل حقق الإنسان رسالته في الحياة ؟

الإنسان في الجملة حقق في تقديري رسالة الخلق والإيجاد وتعمير الكون وبناء الدنيا ، بغض النظر عن الإيمان والكفر ، والاستقامة والضلال ، بدليل هذا التقدم الزراعي والصناعي والتجاري والتقني الذي فاق في القرن العشرين كل ما عرفه التاريخ الإنساني من ألوان الابتكار أو الاختراع والإبداع . وذلك كله بتوفيق الله وإلهامه وتعليمه المكتشفين والمخترعين .

لكن بعض الناس بَتَروا رسالتهم في الحياة عن غايتها الكبرىٰ ، فقصروا عملهم علىٰ الدنيا وعلومها ، وإنجاز ما يناسبها ، وقطعوا صلتهم بالآخرة ، كما قال الله تعالىٰ : ﴿ يَعْلَمُونَ ظَٰهِرًا مِّنَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ ٱلْءَاخِرَةِ هُمْ غَٰفِلُونَ ﴾ [الروم : ٧] .

وهناك بعض آخر عملوا لآخرتهم غالباً وأهملوا دنياهم ، وهم فئة قليلة ، لأن الله تعالىٰ أراد العمل للدنيا والعمل للآخرة معاً .

والفئة الثالثة وفقوا لتحقيق المقصود من الخلق ، فنجحوا في مهام الدنيا ، ولم ينسوا تعمير الآخرة بالتقوىٰ والعمل الصالح .

وهذا التصنيف الثلاثي أرشد إليه القرآن مخبراً عنهم ، فقال الله تعالىٰ : ﴿ ثُمَّ أَوْرَثْنَا ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا ۖ فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌۢ بِٱلْخَيْرَٰتِ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْكَبِيرُ ﴾ [فاطر : ٣٢] .

---

(١) بديع الزمان سعيد النورسي ، الأستاذ إحسان قاسم الصالحي : ص ٢١٩ـ٢٢١ .

وأمام هذا التصنيف لا بد من جهود المصلحين ، لإصلاح المنحرفين وتقويم المقصرين ، وترغيب العاملين ، أمثال النورسي رحمه الله وأمثاله من الدعاة المخلصين إلىٰ الله تعالىٰ ، ومنهج النورسي في الإصلاح : هو الربط الدائم بين الآيات الكونية في طبيعة الإنسان الجسمية والروحية ، وبين الدلالات العقدية لتلك الآيات ، قال مشفقاً علىٰ بعض الناس وهم البائسون الضعفاء العاجزون :

« لقد كنت أتألم لحال ذوي الحياة ، ولا سيما لذوي الشعور منها ، وبالأخص لحال الإنسان ، وبخاصة المظلومين والمبتلين بالمصائب منهم ، لما أحمل من عطف متزايد وشفقة مفرطة ، فكانت أحوالهم تمس عطفي ، وتثير شفقتي ، وتوجع قلبي وتعصره »[١] .

ومنهجه في تصفية الخصومات أوالمنازعات البشرية : هو الصلح بين المتخاصمين ، قال : « نعم ، إن المصلحة والحقيقة في الصلح ، والصلح خير ، لأن الأجل واحد لا يتغير »[٢] . ومصدر المعرفة للإصلاح : إنما هو القرآن الكريم الذي يغترف منه جميع أهل العلم والمعرفة والخبرة ، فهو الذي يرشد إلىٰ الحق وإلىٰ صراط مستقيم .

* * *

(١) ص ١٢ .
(٢) ص ٥٣١ .

الخلاصة

لقد انتهيت بحمد الله إلىٰ نتيجة محكمة في خاتمة هذا البحث عن الإنسان في القرآن الكريم بمنظور رسائل النور ، وهي أن عمالقة الإصلاح في العالم هم الذين يعانون في سبيل دعوتهم أشد الصعاب ، فيعذبون ، ويشرّدون ، ويسجنون ، ويقاومون علىٰ مختلف الأصعدة السياسية والاجتماعية . وقد سُجن النورسي وشُرّد وطُرد مراراً من وطنه . والنورسي رحمه الله عانىٰ في سبيل نشر دعوة الله تعالىٰ في الأرض معاناة شديدة ، ولعل هذه المعاناة سبيل لقدح زناد الفكر لديه ، وإخلاص العمل لله رب العالمين .

وكان السجن والتعذيب مفجراً الطاقات الفكرية والدينية والإنسانية في قلب النورسي وعقله ونفسه ، فظل قائماً بحملته الإصلاحية الجامعة بين المادة والروح ، وعبر عن نفسيته وصبره وجهاده بتعابير صادقة وواقعية ومؤثرة تأثيراً شديداً في سامعيه . فكان حديثه سلوة ، وسيرته عطرة ، وبيانه عذباً ، ومنهاجه وضاءً ، حتىٰ إني لأسميه : « أمير البيان في تبيان معاني القرآن » وهو مع ذلك « أمير البيان في فهم وإدراك حقيقة فلسفة عقيدة الإسلام » .

لقد تحدث النورسي عن الإنسان في القرآن حديث الروح إلىٰ الروح ، فأبان حقيقة تكوين الإنسان المادية والمعنوية أو الروحانية ، وأدرك مدىٰ كماله ورقيه ، وعرف أنه أكرم مخلوق وأنه مخلوق في أحسن تقويم ، وقرر بلسان العالم الكبير أن الإنسان شاهد علىٰ

وجود الله تعالىٰ ، ودليل علىٰ وجود عالم الآخرة ، وهو معد إعداداً مناسباً للحياة الأبدية ، وأن الله يحبه وهو يحب الله ، ويحب ملائكة الله ، ويؤثر الخلود في الآخرة ، ويحب البقاء في الدنيا ، والخلود في الآخرة ويتميز بقوة حافظته ، وهو أيضاً عالم مصغَّر عن الكون ، وهو وسيلة للحياة وهدف لتعمير الكون وعبادة الله ، وتدوّن أعماله وأفعاله عليه ، فلا يضيع منها شيئاً ، وهو مكرَّم ومعزَّز ، والكون كله مسخَّر لخدمته ، وهو ذو أهمية ملحوظة ، فلقد كوّنه الله ، وأبدع خلقه في أحسن تقويم ، وجعله أهلاً لتحمل المسؤولية والتكاليف ، أو الأمانة ، وهي تلازم الكرامة الإنسانية ، ومن تكريم الله للإنسان : تسخير طاقات الكون وذخائره ومعادنه لخير هذا الإنسان ، وجعله خليفة الأرض ، ومظهر تجليات الأسماء الحسنىٰ فيه ، وهو ذو هدف واضح وهو العمل علىٰ عبادة الله تعالىٰ .

* * *

حقوق الإنسان بين العالمية والخصوصيات الثقافية

(العصور الإسلامي)

سبْق الإسلام إلىٰ تبني حقوق الإنسان فكراً وعقيدة ونظاماً[١] :

بقيت نزعة حقوق الإنسان في الضمير الإنساني في العالم القديم والوسيط مجرد شعور فطري وإحساس ديني وفلسفي لدىٰ دعاة الإصلاح والمفكرين ، وعلىٰ يد الأنبياء والمرسلين والفلاسفة ، ولم تتقرر نظرياً ودينياً علىٰ أنها نظام تشريعي وواقع تطبيقي إلا في مظلة الإسلام ، وفي صريح نصوص القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة ، فقد أعلنها هذا الدين مبدأً عاماً في نظامه وعلاقاته مع الأمم والشعوب الأخرىٰ وأتباع الأديان السابقة ، وجعلها إحدىٰ ركائز التشريع الإلهي ، ومن أصول الدين الحق ، ومن قواعد الأخلاق ونظام القضاء ومنهج الحياة الإنسانية ، في الربع الأخير من القرن السادس الميلادي ، وكان للإسلام فضل السبق والإعلان والتطبيق لهذه الحقوق الاجتماعية ، وتحريك الضمير الإنساني ، والوجدان البشري إلىٰ ضرورة الاعتراف بهذه الحقوق ، وتنبيه الناس قاطبة إلىٰ وجوب إقرارها واحترامها بصفتها النظامية والفكرية ، وعلىٰ مدىٰ

---

(١) محاضرة في مسجد الدعوة ـ باريس في ١٩٩٩/١٢/٤ م أثناء ندوة مطولة من الساعة الثانية ظهراً حتىٰ الثامنة مساءً مع مجموعة باحثين فرنسيين في جامعة السوربون وغيرها ومشاركة المحامي الكبير عبد الله بلو من بنينة ـ إفريقية .

التاريخ الإسلامي بصفته السياسية ووجوده الدولي ، وصفته الأخلاقية والعقدية ، قبل ظهور هذه الفكرة والدعوة إليها في القرن الثامن عشر الميلادي الذي وصف بأنه قرن حقوق الإنسان .

وكان الفضل في الغرب في إعلان شرعة حقوق الإنسان لما صاحب الثورة الفرنسية من أفكار الفلاسفة الاجتماعيين ، فصدرت وثيقة حقوق الإنسان والمواطن في (٤) من شهر آب (أغسطس) عام ١٧٨٩ م ، ومطلعها : « يولد الناس أحراراً ومتساوين في الحقوق » وتضمن الإعلان الفرنسي لحقوق الإنسان ١٧ مادة . وسبق ذلك في إنجلترا إعلان بعض الحقوق في أعوام ١٦٢٧ م و ١٦١٨ م و ١٦٧٩ م و ١٦٨٨ م ، وصاحب إعلان الاستقلال في أمريكا عام ١٧٧٦ م إعلان الاعتراف ببعض الحقوق كحق الحياة والحرية ، والمساواة بين الناس .

وبرزت في أوائل وأواسط القرن العشرين وثائق دولية عن حقوق الإنسان ، وأهمها إعلان هذه الحقوق سنة ١٩١٩ م في عهد عصبة الأمم ، وتبعه الإعلان العالمي لحقوق الإنسان في ١٠/١٢/١٩٤٨ م الذي أقرته الجمعية العامة للأمم المتحدة ، في ٣١ مادة ، تضمنت إقرار حق الحياة والحرية الشخصية والمساواة ، وحرية الرأي والتعبير ، وحرية التفكير والضمير والدين ، وتأسيس الأسرة ، وحق التقاضي وإلغاء الرق والاستعباد ، والحق في الجنسية ، والتملك ، وتكوين الجمعيات والجماعات السلمية ، وإدارة البلاد ، وكون إرادة الشعب هي مصدر الحكم ، والحق في الضمانات الاجتماعية والعمل والراحة والتعليم والتعلم ، وحقوق الفرد وحقوق المجتمع ، وإلزام الدول باحترام الحقوق والحريات .

عوامل ظهور حقوق الإنسان بين الدول :

كان إعلان وثيقة حقوق الإنسان والمواطن في فرنسا في العشر الأخير من القرن الثامن عشر رداً علىٰ ما كان سائداً في العهود البائدة من مظالم وتعسف ومخازٍ واستبداد ، كالاضطهاد الديني ، ومصادرة الأموال ، وامتهان الكرامة الإنسانية ، وإهدار الحرية الشخصية ، والإمعان في النظام الطبقي ، ونبذ فكرة المساواة بين المواطنين بل والبشر جميعاً .

وكان من أهم أسباب تقرير حقوق الإنسان في العالم بعد القرن الثامن عشر ، وخاصة في القرن العشرين : التحرر من الاستعمار ، ومن ضغط الحكومات المحلية أو الإقليمية ، ومن مظاهر العنف والذل والتخلف ، ثم إصدار المواثيق الدولية لحقوق الإنسان ، والعمل علىٰ حمايتها ، ولكن كان ذلك في الغالب نظرياً لا عملياً .

فما بعد ظهور المواثيق الدولية المذكورة ، وجد تناقض بين النظرية والواقع ، فلقد صيغت تلك المواثيق متأثرة بعناصر الاستعلاء ، والفوقية ، والاعتماد علىٰ أسلوب القوة ، والتقدم الصناعي والتقني في مجالات الزراعة والاختراع ، ووسائل الاتصال ، واختراع وسائل الدمار الرهيبة والشاملة ، والعمل علىٰ متانة الاقتصاد الصناعي الغربي ، وتخلف الدول النامية في آسيا وإفريقية ، ولم تشترك أكثر الدول المستعمرة الضعيفة في صياغة هذه المواثيق .

وتميز سجل الغرب بعد إعلان هذه الحقوق بالحروب الطاحنة العالمية والمحلية ، والهيمنة الاقتصادية ، والاستعمار بشكليه القديم والحديث ، والقمع الرمزي أو الفعلي للمستضعفين ، والتدخل في شؤون الدول الصغيرة ، ثم ظهور النظام العالمي الجديد بعد انهيار

الاتحاد السوفييتي عام ١٩٩١ م وبداية سقوط الشيوعية عام ١٩٨٩ م ، والذي يتضمن محاولة أمريكا الشمالية فرض هيمنتها وسلطانها علىٰ العالم بأسره ، ثم ظهور ما سمي بالعولمة الثقافية والاجتماعية والاقتصادية وعالم الاتصال والإعلام ، وهي رمز خفي عن الغطرسة ، وهي تعني سيطرة الدول الكبيرة والغنية علىٰ الدول الفقيرة أو الصغيرة .

والعولمة : تعبير عن ديناميكية جديدة تبرز داخل العلاقات الدولية ، من خلال تحقيق درجة عالية من الكثافة والسرعة في عملية انتشار المعلومات والمكتسبات العلمية والتقنية ، إنها توطيد لمعان جديدة وقيم جديدة في إطار السياسة الدولية والاقتصاد الشمولي . والعولمة الثقافية لتصدير ثقافة الغرب وتقاليده ومجونه وتحلله الأخلاقي ، والعولمة الاقتصادية : هي محور الفكر الاقتصادي اليوم ، وهي بؤرة العولمة .

أي إن العولمة : هي دمج العالم في مجتمع عالمي واحد ، وهي ترتبط بالمستجدات الاقتصادية وتهدف إلىٰ إلغاء الحدود الجغرافية ، وإبراز عالم بلا حدود اقتصادية ، حيث يتم النشاط الاقتصادي عبر الشركات العابرة للقارات كشركات السيارات في أمريكا واليابان ، وشركات الاتصالات العالمية مثل شركة (I.T.T) فيصبح العالم قرية واحدة ، ولا يعترف بالثقافات الموضعية أو المصالح المحلية ، فلا يبقىٰ مجال لحقوق الضعفاء ، وتصبح الهيمنة للأقوياء بزعامة أمريكا ، ويبرز عالم بلا حدود ثقافية أو حضارية ، ويظهر دور الإسلام في تنبيه العالم لحقوق الإنسان في مرحلة الاحتكاك بين الشرق والغرب في القرنين الحادي عشر والثاني عشر الميلادي ، فقد كانت أوروبة في القرون الوسطىٰ متمركزة حول نفسها ، منغلقة في مفاهيمها وحياتها ،

فقاموا بشن الحروب الصليبية بعد إعلان البابا أوربان الثامن الفرنسي الجهاد المقدس في ١٦/١١/١٠٩٥ م لتحرير مهد السيد المسيح من أيدي المسلمين ، وفي هذه الحروب وأعقابها تعلّم الغربيون من تعاليم الإسلام وسيرة المسلمين الأدبية والإنسانية المعاني الكثيرة والمبادئ العامة في السلم والحرب ، لأن رسالة الإسلام دين الكمال الإنساني والاقتصادي والاجتماعي والأخلاقي والعقدي .

أساس حقوق الإنسان في الإسلام :

حدد التشريع الإسلامي أطر العلاقات الثلاث : علاقة الإنسان بربه ، وعلاقته بنفسه ، وعلاقته بمجتمعه ، وأوضح العلاقة الوطيدة بين الله والإنسان والكون ، وطرق المعرفة ومنهج العبادة ، وتميز الخطاب القرآني بعنايته بالناس ، والإنسان جذر هذه العلاقة ، لأن رسالة الإسلام ذات نزعة عالمية موجهة لجميع الناس ، فتكرر الخطاب بكلمة « يا أيها الناس » ٢٨ مرة ، وجاء لفظ « الناس » ٢٤٠ مرة ، وورد لفظ « إنسان » ٦١ مرة .

وإذا تأخر صدور إعلان رسمي إسلامي من الدول الإسلامية عن الإعلان الدولي ٤١ سنة ، فهو مجرد تأكيد وتقرير لما أعلنه الإسلام منذ فجر دعوته في العالم منذ أربعة عشر قرناً ، ومع ذلك صدر هذا الإعلان في ١٩/ أيلول (سبتمبر) ١٩٨١ م في ٢٥ مادة ، تناولت الحقوق الأساسية (حق الحياة والحرية والمساواة) والحقوق السياسية (حرية الرأي والتعبير وتكوين الدولة) وحقوق الأسرة (كونها عماد المجتمع وتكوينها بالزواج وكون المرأة شقيقة الرجل ونصف المجتمع ، وحق الطفولة) وحق التمتع بجنسية معينة ، وحقوق التربية والتعليم ، وحقوق العمل والضمان الاجتماعي ، والكسب الشريف ،

وحق الملكية الخاصة ، وحق التقاضي ، وحق التنقل وحرمة الإنسان حياً وميتاً ، وتقييد هذه الحقوق بأحكام الشريعة الأصلية والأساسية .

يتبين من هذا أن العولمة في أغلب نواحيها ضارة مرفوضة في تصورنا الإسلامي ، لأن لنا ثقافتنا ولنا حضارتنا المتميزة الجامعة بين الروح والمادة ، ولنا قيمنا ومبادئنا التي لا يجوز تجاوزها أو تخطيها ، ووجب الوقوف أمام تحدي العولمة لمنع ذوبان شخصيتنا ، والحفاظ علىٰ هويتنا ، وإثبات ذاتيتنا ، والحرص علىٰ نشر رسالتنا العالمية .

وأساس النظرة إلىٰ حقوق الإنسان في الإسلام ليس هو مجرد العدل المقتضي للمساواة ، ولا مجرد الحرية المشعرة بوجود الإنسان وحريته ، كما هو المعتبر في الأنظار الفلسفية والقانونية ، ونظرية العقد الاجتماعي التي نادىٰ بها هوبزولوك وتبناها جان جاك روسو في أوروبة ، فهي أساس حقوق الإنسان في نظرهم لاقتضائها المساواة بين أطراف التعاقد ، وهم الحكام والمحكومون ، وإنما أساس هذه الحقوق في الإسلام بالمعنىٰ الدقيق والشامل : هو إقرار الكرامة الإنسانية أو التكريم الإلهي للإنسان ، وهي تستلزم الاعتراف بالحرية ، والعدل ، والسلام ، والحقوق الضرورية أو الحاجية للحياة الإنسانية في العلم والتربية والعمل والكسب والانتقال وغير ذلك . قال الله تعالىٰ : ﴿ ۞ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِيٓ ءَادَمَ ﴾ [الإسراء : ٧٠] وهي تضع أساس التصور الإسلامي للإنسان والكون والحياة ، وترشد إلىٰ الفطرة الصحيحة التي فطر « أوجد » الله الناس عليها ، كما في قوله سبحانه : ﴿ فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا ۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ ﴾ [الروم : ٣٠] . لذا كان الخطاب التشريعي والعقدي في القرآن الكريم مبدوءاً بـ (يا أيها الناس) غالباً كما تقدم . وما أجمل وأروع هاتين

الآيتين : آية : ﴿ لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِىٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ﴾ [التين : ٤] ، وآية : ﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّى جَاعِلٌ فِى ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً ﴾ [البقرة : ٣٠] . وبعد إعلان ميثاق حقوق الإنسان عام ١٩٤٨ م في الأمم المتحدة ، صار لحقوق الإنسان مدلول عالمي ، لكن ذلك مجرد شعار ، واعتبار نظري في الغالب ، ومن الناحية العملية ظلت خصوصية الثقافة الغربية مهيمنة ، وظلت بصمات الغرب في وقتنا الحاضر هي السائدة والمسيطرة علىٰ مفهوم حقوق الإنسان في التأويل والتوضيح والواقعية ، فمثلاً : الختان يقال : إنه عدوان علىٰ الإنسان ، مع أنه وضع طبي صحي وفي صالح الإنسان نفسه . ومن ناحية أخرىٰ ، نجد أن خطف أولاد المسلمين أو أخذهم بذرائع مختلفة في أوروبة وأمريكا ، يقصد به تنصير المسلمين وجعله أمراً واقعياً .

وحجاب المرأة المسلمة يقال : إنه عدوان علىٰ نظام الدولة ، ومظهر من مظاهر التمييز ، ونرىٰ أن فرنسا تهاجم الحجاب ، وهي تدعو للعمل بحقوق الإنسان واحترامها ، وأما في تركيا حيث ينزع الحجاب ويقاوم ، فلا يتكلم أحد عن منع الحجاب . وأما الباروكة فقد هزىء الغربيون من المسلمة التي ترتديها ، ولكنهم لم يجدوا ذلك ممنوعاً علىٰ اليهوديات . وانتقد الغربيون نظام الميراث في الشريعة الإسلامية ، مع أنهم لم يفهموا تكامل هذا النظام وارتباطه بنظام المسؤولية عن النفقات ، فمن يجب عليه الإنفاق يكون حظه من الميراث أكبر من الذي لا يلزم بأي نفقة .

وانتقدوا أيضاً حكم تعدد الزوجات في الإسلام مع أنه قليل التطبيق عملياً ولا يتجاوز في الغالب ٢٪ ، ويبيحون لأنفسهم تعدد العشيقات والعشاق بين الرجل والمرأة ، مع أن الأول منظم ومسؤول ، والثاني فوضوي وغير مسؤول .

مشتملات حقوق الإنسان :

يقر الإسلام ما تضمنه الإعلان العالمي عن حقوق الإنسان في العاشر من كانون الأول (ديسمبر) عام ١٩٤٨ م ، من الناحيتين النظرية والعملية ، إلا أنه يتحفظ علىٰ مواد ثلاث وهي :

١ـ المادة ١٦ المتعلقة بحق الرجل والمرأة في التزوج وحريتهما في تكوين أسرة ، من غير تقيد بسبب الجنس أو السن أو الدين ، وهذا يتعارض مع أحكام الشريعة الإلهية التي تمنع زواج المسلمة بغير المسلم ، حفاظاً علىٰ ما ينبغي أن يقوم عليه الزواج من انسجام وتوافق في الطبائع والمعتقدات ، وهذا الزواج يصطدم بمشاعر المرأة التي يريد الرجل ـ وهو في العادة أقدر من المرأة ـ فرض معتقده عليها مما يمنع استمرار الزواج وديمومته ، ويعرّض هذه العلاقة للانهيار ، لذا جاء النص القرآني مصرحاً بمنع هذا الزواج ، فقال الله تعالىٰ : ﴿ وَلَا تُنكِحُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ حَتَّىٰ يُؤْمِنُوا۟ ۚ وَلَعَبْدٌ مُّؤْمِنٌ خَيْرٌ مِّن مُّشْرِكٍ وَلَوْ أَعْجَبَكُمْ ۗ أُو۟لَٰٓئِكَ يَدْعُونَ إِلَى ٱلنَّارِ ۖ وَٱللَّهُ يَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱلْجَنَّةِ وَٱلْمَغْفِرَةِ بِإِذْنِهِۦ ۖ ﴾ [البقرة : ٢٢١] .

٢ـ المادة ١٨ في حق الإنسان في تغيير دينه أو اعتقاده ، وهي تتعارض مع منع المسلم من ترك دينه والارتداد إلىٰ دين آخر ، أو لغير دين ، فإن الإسلام قرر عقوبة القتل في الردة ، لأنها خيانة عظمىٰ ، وإضمار لعداوة المسلمين والنظام الإسلامي ، ومنعاً من التلاعب بالدين الذي كان اليهود يفعلونه في عصر الوحي والنبوة ، كما حكىٰ القرآن ذلك عنهم : ﴿ وَقَالَت طَّآئِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ ءَامِنُوا۟ بِٱلَّذِىٓ أُنزِلَ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَجْهَ ٱلنَّهَارِ وَٱكْفُرُوٓا۟ ءَاخِرَهُۥ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٧٢﴾ وَلَا تُؤْمِنُوٓا۟ إِلَّا لِمَن تَبِعَ دِينَكُمْ ﴾ [آل عمران : ٧٢ـ٧٣] .

إن الغربيين واليهود خاصة ينظرون للأديان نظرة بشرية ، ليس فيها

تقديس ، مثلما ينظرون إلىٰ عدم تنفيذ أمر عسكري ، فيبيحون بأهوائهم هذا التبديل والتلاعب بالدين ، مع أن العقيدة أقدس شيء في هذا الوجود ، فلا يجوز عقلاً ومنطقاً التلاعب بالأديان ، والإسلام دين الحق ، له قداسته ، وهو دين إلهي : ﴿ إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ ﴾ [آل عمران : ١٩] فمن بدّل دين الإسلام ، ارتد وعوقب حفاظاً علىٰ النظام العام في الجماعة الإسلامية .

أما قبل الدخول في الإسلام فحرية العقيدة ومنع الإكراه في الدين أمر مقرر في الإسلام ، فمن دخل فيه عن اقتناع بحرية تامة قُبل منه ، فإذا خرج منه أضمر العداء ، وأظهر الحرابة ، وتراجع عن القناعة ، فلم يعد له قصد سليم ولا نية حسنة ، قال الله تعالىٰ : ﴿ لَآ إِكْرَاهَ فِى ٱلدِّينِ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشْدُ مِنَ ٱلْغَىِّ ﴾ [البقرة : ٢٥٦] ، وقال سبحانه : ﴿ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً ﴾ [النحل : ٩٣] ، وقال عز وجل : ﴿ وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَءَامَنَ مَن فِى ٱلْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا ۚ أَفَأَنتَ تُكْرِهُ ٱلنَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ ﴾

[يونس : ٩٩] .

ونشر دعوة الإسلام ذو مظهر عالمي ، فلا يجوز التلاعب بالأديان ، وحرية اعتناق الدين مكفولة في الإسلام لغير المسلمين ، فأي غضاضة أو ضرر عليهم إذا كان النظام الداخلي في الإسلام يمنع الارتداد عنه ؟! .

كما أن حرية الرأي والتعبير مكفولة في الإسلام ، لقوله تعالىٰ : ﴿ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا ﴾ [الإسراء : ١٥] ، فهذه الآية تقرير لهذه الحرية ، ولا خلاف في ذلك بين علماء الإسلام ، ولم ينكر أحد من الصحابة اختلاف الآراء ، حيث نزل تشريع الشورىٰ ﴿ وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ ﴾ [الشورىٰ : ٣٨] ، ﴿ وَشَاوِرْهُمْ فِى ٱلْأَمْرِ ﴾ [آل عمران : ١٥٩] وتشريع

الشورىٰ إقرار لحرية الرأي . وكذلك كان الأمر بعد عهد الصحابة ، فلم ينكر أحد تغير الآراء والمعارضة ، ولو خالف ذلك رأي جمهور العلماء ، ثم استمر الخلاف بين المسلمين في الماضي والحاضر بسبب حرية الاجتهاد بشرط توافر ملكة الاجتهاد وضوابطه وشروطه البدهية والمرعية في كل اختصاص علمي .

لكن اقتناع المسلم بما يدمر العقيدة الإسلامية كالفكر الماركسي العلماني أو اللاديني ، أو القول بالإباحية في الفكر الغربي ، أو بإعلان رأي علمي يخالف قطعي القرآن الكريم يكون مرفوضاً غير مقبول ، لأن الإسلام دين الله تعالىٰ ، وليس له صبغة بشرية .

وحرية انتقال غير المسلم من دين إلىٰ آخر لا مانع منه ، ولا يتدخل المسلمون في شأن فاعله ، خلافاً لما كانت تفعل محاكم التفتيش في أوروبة من ذبح أو قتل المخالف في العقيدة ، وما ارتكبه الإسبان في تخيير المسلم إما بالتنصير وإما بالقتل .

إن في الممارسة الفعلية لدى الغرب تناقضاً ، فحرية التنصير في إفريقية وأندونيسيا قائمة ، ويتنصر من المسلمين في العام (١٦٠٠٠) شخصاً ، أما مشكلة جنوب السودان وحماية المتمردين بقيادة قرنق والحرص علىٰ ترويج النصرانية ، فلا يعترضون عليها ، وإنما علىٰ العكس يمدونهم بمختلف أنواع الإمداد المادية والمعنوية . ويقر الغربيون التحرك اليهودي في جميع الميادين ، وتقطع أوروبة الآن علاقتها بالنمسا حرصاً علىٰ النفوذ اليهودي الإعلامي والمصالح اليهودية ، ولا يوافقون علىٰ التحرك البوذي مثلاً .

ويصرخ الغرب لنصرة قضاياه ، ويرسلون البعثات التبشيرية إلىٰ كل البلاد وفي كل مكان ، ويمنع المسلمون في الداخل من أسلمة

المجتمع ومن تطبيق الشريعة ، ويلاحق بعض دعاة الإسلام في أوروبة وكندا وأمريكا .

٣ـ المادة ٢٥ التي تقر بثبوت النسب من غير طريق شرعي ، وترعىٰ اللقيط وولد الزنىٰ ، أما النظرة الإسلامية فلا تمنع من رعاية اللقطاء وأولاد الزنىٰ وتربيتهم والإحسان إليهم ، إذ لا ذنب لهم ، ولكن الإسلام لا يجيز ثبوت النسب من رابطة غير شرعية ، لأن الزواج في الغرب مجرد متعة ، أما في الإسلام فهو عون شريف علىٰ إكمال شطر الدين ، ومن أجل الحفاظ علىٰ تكاثر النوع الإنساني ، فلا يبيح مثلاً الشذوذ الجنسي .

هذه هي المواد التي يتحفظ عليها المسلمون ، فلا يوافقون عليها ، لقناعتهم بأضدادها ، وحرصهم علىٰ نقاوة المجتمع ، وطهارة الأعراض ، وتقديس حرمة الإسلام ، وما عدا هذه المواد من ميثاق حقوق الإنسان يقره الإسلام ويدعو إليه ، مثل حرية التعبير والرأي والمساواة بين الناس من غير اعتبار العنصر والجنس واللون ، وحق التربية والتعلم والتعليم ، وحق الحياة والعيش الكريم ، وحق العمل والتنقل ، والتجنس ، وتكوين الدولة وإدارة شؤونها وتقلد الوظائف ، ومراعاة الحقوق الاقتصادية والاجتماعية وغيرها .

وكذلك القصاص وتقرير الحدود والعقوبات المقدرة وغير المقدرة (التعازير) لا تنافي حقوق الإنسان ، وإنما هي لصيانة مصلحة الأمة والجماعة ، والمصلحة العامة تقدم علىٰ المصلحة الخاصة ، والمهم هو توفير الأمن والأمان الذي تفخر به المجتمعات الإسلامية ، علىٰ عكس الأحوال في أوروبة وأمريكا .

الخلاصة

إن حقوق الإنسان في شرعة الأمم المتحدة ذات صبغة مادية ، لم تتعرض للجانب الروحي ولا الأخلاقي ، وهو تعبير عن الفشل البشري ، وكان المهم لدى الغربيين هو الشعار والاعتبارات النظرية لا العملية .

أما حقوق الإنسان في الإسلام فهي جزء من العقيدة والسلوك ، والحقوق يجب أن تقابلها واجبات ، والحقوق في الإسلام منحة من الله لا تقابل في الغالب بواجبات ، وكل شرائع الإسلام هي تذكير بالمصلحة الحقيقية للجماعة ، وتذكير أيضاً بحقوق الإنسان الضعيف ، ولقد تحقق في الإسلام التوازن بين الحقوق والواجبات ، ووصلنا إلىٰ الصراط المستقيم ، وكان حرص الإسلام علىٰ أداء الحقوق ورعاية الواجبات إنما هو من أجل تحقيق التوازن والمساواة والعدل بين الناس ، والمسلمون يعبدون إلهاً واحداً ، فهم متساوون ، وحقوق الإنسان في الإسلام مطبقة علمياً وواقعياً ، ولها قداسة بالمعيار الحقيقي ، فمثلاً يقال : الأنترنيت حرية ، والواقع هو مفسدة ، والحقوق الإنسانية العالمية في غير شرعة الإسلام مجرد خيال ، ولقد انتهكت وتنتهك حقوق الإنسان في كل زمان ومكان ، بدليل ارتكاب جرائم القتل والمطاردة والتشريد للضعفاء ، وأما جرائم اليهودية العنصرية والوحشية فمعروفة .

* * *